عدد خاص

ناصر ٤٨

(دماء على دفتر النكبة)

رواية

إياد حرفوش

ناصر ٤٨

دماء على دفتر النكبة

مركز النيل للدراسات الإستراتيجية

١٩ شارع عبد السلام عارف (البستان)، التحرير – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٣٩٢٤٢١٩ – ٢٣٩٢٤٢١٧

E.mail: <nile.center@hotmail.com

http://nilecss.com

ناصر ٤٨

دماء على دفتر النكبة

د/ إياد حرفوش

بطاقة الفهرسة

إياد أحمد

ناصر 48، دماء على دفتر النكبة

القاهرة، مركز النيل للدراسات الاستراتيجية، 2014م

رقم الإيداع 2014/14291.

التاريخ: 2014/7/10م

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى: 2014م

إهداء

إلى أبنائي "سيف الدين" و"سلمى"، وإلى كل "سيف" وكل "سلمى" بطول وطننا العربي وعرضه، أُهديكم هذه السلسلة من بطولات "أغلى الرجال". فليس في تاريخنا الضارب في عُمق الزمن، ما هو أغلى من هؤلاء الذين ينسفون – حتى بذكراهم – تخرصات الذين افتروا على شعبنا العربي أنه خانع، وأن أمتنا المجيدة أمة الهزائم والنكسات!. لهؤلاء الذين ما هم منّا، وما نحن منهم، للمهزومين في عقر رجولتهم، والمنسحقين في صُلب كرامتهم، نقول: ربما لا يكون شعبنا أعظم شعوب الأرض، لكنه قدَّم كل ما وَسِّعه من تضحيات جِسام، نابَ عن شعبنا في تقديمها أغلى رجالنا، ممن قدموا أعمارهم قرابيناً لمستقبل جيلنا، وأجيال صاعدة آتية، بعدما نسج "أغلى الرجال"، بخيوط الدم والألم، طريقنا الصعب الذي تُظلله رايات النصر المنشود. إليكم، يا أغلى الناس، صفحات من سِفر بطولات أغلى الرجال، فخطاهم هي – وهي وحدها – المعالم الحقيقية على طريق المجد.

المؤلف

متعصب أنا لك يا جمال

متعصبٌ أنا لك يا "جمال"!!

متعصبٌ لك، قدرَ ما كنت أنت متعصبا لنا

للفلاحين بجلابيبهم الفضفاضة الزرقاء

لتلاميذ المدارس الوطنية بمرايلهم الصفراء

للعمال أمام أفران الصلب

وللجنود يعانقون البندقية ..

في مرابض الصحراء

للعرب في فلسطين والجولان ..

كما في سيناء!

***

متعصبٌ أنا لك يا "جمال"!

متعصبٌ ذاك التعصب الذي ..

لا يُعمِي عن الأخطاء

لكنه يستوعب الأخطاء.

متعصب يرى فيك عظمة البشر ..

لا عصمة الأنبياء!!!

وعظمة البشر هي؛ خيط من صواب .. وخيط من خطأ ..

وخيط من كبرياء

وقبلها جميعا؛ رباط من ولاء وانتماء.

***

متعصب أنا ..

متعصب يشتعل رأسه بالشيب مبكرا ..

كما شِبتَ أنت!!

يكتوى قلبه بالأحلام الكبار .. والإحباطات الكبار ..

كما اكتويت!!

يحترق صدره بدخان ليالي الأرق ..

كما احترقت!!

متعصب ..

يحلم بهذا الوطن كبيرا مهيبا ..

كما حلمت.

***

متعصب أنا لك ..

يذكرك كثيرا .. كثيرا!!

بعدد مداخن المصانع ..

وعدد سنابل القمح ..

وعيدان الذرة الصيفية

بعدد مدارس الصعيد ..

والعيادات القروية

بعدد الرصاصات التي أطلقت ..

في الجبهة الشرقية

بعدد حروف القرآن مترجمةً ..

لكل اللغات الحية

بعدد الأنفاس الحرة في القارة الإفريقية.

بعدد ليالي العَشَاء الساخن ..

على طبلية الفقراء

وعدد حقائب التموين الشهري ..

في أيدي النساء

***

متعصب أنا لذكرك ..

بقدر حقد خصومك على ذكراك

بقدر ماشنعوا عليك ..

وسودوا بحقدهم الصفحات

بقدر ما هولوا الانكسارات ..

وهونوا الانتصارات!!

بقدر ما ناحوا على النكسة ..

وشمتوا بضرب المطارات!!

بقدر ما تجاهلوا أمجاد الاستنزاف ..

براس العش وشدوان وإيلات.

***

متعصب أنا بحبك ..

متعصب لا يناقش في حبه أحدا

فالحب كالإيمان لا يناقش ولا يبرر

القلب وحده في الحب يقرر!!

متعصب لا يغريه التصفيق للاعتدال

لنبرة القوادة في الحوار وفي المقال

لمن يخفون تخنثهم بمثالية الملائكة ..

أو بمنطق العيال

متعصب أنا لا أريد ثناء من بشر ..

لو كان على حسابك الثناء

متعصب أنا لك ..

وحسبي وحسبك رب السماء.

القاهرة في ٢٣ يوليو ٢٠١٣م

المؤلف

هذه السلسلة

منذ منتصف سبعينات القرن العشرين، جرت أكبر حملة تشويه للوعي القومي عرفها شعب في تاريخ الإنسانية، حملةٌ كان هدفها أن تهزم شعبا من داخله، بعد أن حار أعداؤه في كسره من خارجه، وفشلوا. جرت تلك الحملة هنا، على أرض مصر، حيث اتفقت مصلحة النظام وقتها، مع هوى أكبر فصائل المعارضة، فاجتهدوا جميعا لتشويه تاريخ هذا الشعب الحديث والمعاصر.

أما النظام، فكان قد تبنى سياسة الانبطاح أمام الإرادة الأمريكية، ومن ثم الواقع الجديد لإسرائيل بوصفها دولة المحور في الشرق الأوسط. وصار من مصلحته بطبيعة الأمور أن ينسى الناس أيام مجد لم يتقادم بها العهد بعد. صار من مصلحته أن يتحول انتصار الشعب في ١٩٥٦م إلى هزيمة، وأن يتحول انتصاره المجيد في ١٩٧٣م إلى محاولة بطولية انتهت بمجرد تدخل أمريكا!! وأن تتحول هزيمة ١٩٦٧م من هزيمة جولة إلى عقدة أبدية، وأن تتحول حرب ١٩٤٨ ببطولاتها إلى "علقة" للجيوش العربية!!

كما صار من مصلحته أن ينسى هذا الشعب كيف قام بالثورة تلو الثورة في تاريخه الحديث، من ثورة ١٨٠٥م، للثورة العربية بقياد "أحمد عرابي باشا" في ١٨٨١م، لثورة ١٩١٩م بقيادة "سعد زغلول باشا" ورفاقه، وثورة يوليو ١٩٥٢م. أربعة ثورات جرى تهميشها أو تشويهها، فصارت "هوجة عرابي"، و"انقلاب يوليو"، وصار الحديث عن

خنوع المصريين وصناعتهم للفراعين حديثا مقدسا على موائد المثقفين قبل البسطاء. وتحول السؤال المنطقي وهو "متى يثور المصريون؟" إلى سؤال مرير هو "لماذا لا يثور المصريون؟"، كأن عدم ثورتهم على الظلم صار واقعا نسعى لفهمه، وليس مرحلة نسعى لتغييرها!!!

هكذا اقتضت مصلحة النظام، أما أكبر فصائل المعارضة – أو التي يفترض أنها كانت معارضة – ممثلة في تيار اليمين الديني، من جماعة الإخوان ومن لفَّ لفَّها، فقد وافق هذا النهج من النظام هواهم. ولم يكن إسهام أقلامهم ومنابرهم في تشويه تاريخنا بأقل من إسهام النظام. فمن مصلحتهم أن يرى الناس تاريخهم كله من محنة إلى محنة، وأيامهم كلها من هزيمة إلى هزيمة، ومن انكسار إلى انكسار. ليصبح تيار "دولة الخلافة" عندهم هو المهدي المنتظر، الذي يستدعي لهم من التاريخ البعيد مجدا، نفاه بنفسه عن التاريخ الحديث والمعاصر!

حتى جاءت ثورة ٢٥ يناير، وبعدها ثورة ٣٠ يونيو، وسقط نظام مبارك وبعده الإخوان، ليبدأ الشعب رحلة البحث عن ذاته، وتاريخ رجاله وأبطاله من جديد. فالتجربة قد فندت له ما درسه في المناهج الدراسية، وما قرأه من رفوف المكتبات على السواء.

وسلسلة "أغلى الرجال"، سنطالع فيها معا قصصا لرجال عاشوا بيننا في الماضي، فصنعوا حياتنا في الحاضر، أو بمعنى أدق، صنعوا أفضل وأنبل وأنظف ما فيها. ولو كانت

تلك القصص في شقها الدرامي من خيال مؤلفها، فهي في شقها السياسي والعسكري والمعلوماتي تلتزم التاريخ، ولا تستلهمه فحسب. نكتب تاريخهم وبطولاتهم الواقعية التي فاقت الخيال، من أجلنا نكتبه وليس من أجلهم، ومن أجل مستقبلنا نقرأ فيهم ماضينا، فتلك القصص لن تعرفنا بهؤلاء الرجال وحسب، لكنها ستعيد تعريفنا من خلالهم بتاريخنا الحقيقي الذي تعمد الجميع وتعاون الجميع لتشويهه. والله من وراء القصد وبالله التوفيق.

القاهرة في خريف ٢٠١٣م

المؤلف

هذا العدد

وهل يمكن أن يمر هذا العدد من سلسلة "أغلى الرجال" بدون تقديم خاص، وهو عنه؟ عن الرجل الذي مهَّد لأغلى رجالنا طريقهم؟ وهل يمكن أن تكون هذه القصة كغيرها من القصص، وهي قصة تلك المرحلة المبكرة من مراحل عمره، والمؤسسة لما بعدها من مراحل نضاله؟ ذاك النضال الذي قاد نضال أمة بأسرها؟

إنها قصة الصاغ "جمال عبد الناصر حسين خليل"، رئيس أركان حرب الكتيبة السادسة، من اللواء الرابع، ضمن قوات الجيش المصري المشاركة في حرب فلسطين، والبطل المقاتل في معارك أسدود والمجدل والمجحز وعراق المنشية وغيرها، وبطل الصمود في حصار الفالوجا! وفيما بعد الزعيم خالد الذكر "جمال عبد الناصر" رئيس الجمهورية العربية المتحدة! إنها تلك المرحلة من حياته التي ندر تناولها على كثرة ما كتب عن الزعيم.

وهنا يجب أن نرجع الفضل لصاحبيه، شاكرين مقدرين لدورهما الذي لولاه ما كان ممكنا توافر المادة التاريخية اللازمة لكتابة هذه القصة عن تلك المرحلة المحورية في حياة الزعيم الراحل، إنهما الأستاذين "محمد حسنين هيكل"، و"عبد الله السناوي". أما أستاذنا "هيكل" فكان له فضل الاحتفاظ بدفتر يوميات الحرب الذي خطه الزعيم بيده يوما بيوم، والذي حصل عليه خلال حوار صحفي أجراه مع الزعيم بعد الثورة عام ١٩٥٣م عن ذكرياته حول حرب فلسطين، فأعطاه الزعيم دفتر اليوميات ليعينه على تدقيق التواريخ

والأحداث، واحتفظ به "هيكل" لستين عاما كاملة، حتى رأى النور في عام ٢٠١٣م، عندما أقنعه تلميذه النجيب، الكاتب الصحفي الأستاذ "عبد الله السناوي" أن الوقت قد حان لتنشر تلك اليوميات للناس. فنشرها "السناوي" بتقديمه بعد موافقة الأستاذ، نظرا لتوقف "هيكل" بقرار طوعي عن الكتابة منذ سنوات!

ولهذا، فقد كان دوري المتواضع في كتابة هذه القصة، هو أن أعيش كل تفاصيل اليوميات التي خطها الزعيم بيده في ذلك الدفتر القديم، وأن أرى الأحداث بعين خيالي حية تجري أمامي، وأن أتمم ما غاب منها بما لدي من معلومات عن أحداث حرب فلسطين، لأكتب قصة! .. قصة ولادة الزعيم على أرض فلسطين! تلك الولادة التي عبر عنها الأستاذ "السناوي" خير تعبير في مقدمة كتابه وهو يقول: **ولدت الثورة في قلب رجل عندما كتب بخط يده في يوميات القتال: "لقد فقدنا ثقتنا في قيادة الجيش.. وفي قيادة البلاد". ولعل هذه العبارة –بالذات– هي المشهد الافتتاحي لإزاحة النظام الملكي بالكامل .. تمهيدا لعصر يوليو التي خاض معاركها، انتصر وخسر، وربما أكثر ما أوجعه بعد هزيمة ١٩٦٧م أن بعض ما انتقده في عام ١٩٤٨م تكرر معه عام ١٩٦٧م. ثغرات النظام أدت إلى الانقضاض عليه والنيل منه .. وكانت تلك محنة رجل متسق مع نفسه ومع أفكاره، يصدق نفسه ويصدقه الشعب، لا يكذب ولا يدعي .. حتى وهو يكتب في مطلع شبابه يوميات قتال لا يتوقع أن يراها أحد .. أو أن المقادير سوف تصحبه إلى سدة السلطة العليا في مصر، وأن يكون بعد أربع**

سنوات الرجل القوي في مصر وبعد ثماني سنوات الرجل الذي يسقط الإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية، ويصعد بالأحلام العربية – في تجربة الوحدة مع سوريا – إلى ذراها العالية بعد عشر سنوات فقط من كتابة مذكراته في خندق قتال على ضوء لمبة جاز .. كأنه شهاب انطلق من فلسطين إلى القاهرة .. كأنه نسر محلق في سماء المنطقة حملنا على جناحيه، قبل أن يهبط إلى مثواه .. وهبط بعده إلى المأساة"

كلمات عبقرية جديرة بأن تعبر عن عبقرية البطل أو بطولة العبقري؛ عبقري الوطنية المصرية والقومية العربية المعاصرة! جمال عبد الناصر.

(١)

الطريق إلى غزة

الزمان: الخميس ٣ يونيو ١٩٤٨م

المكان: قطار القاهرة – غزة العسكري

على المقاعد الخشبية الجافة جلس الضابطين المصريين متقابلين وقد خلعا السترة والبيريه وظهر عليهما عناء السفر والسهر الطويل، فقد تحرك بهما القطار مساء أمس من باب الحديد في القاهرة، ومازالت ساعات تفصلهما عن الوصول إلى محطة غزة، فقد عبرا منذ أقل من ساعة فوق كوبري الفردان[1] ومازال أمامهما اجتياز سيناء بكاملها قبل الوصول إلى رفح ومنها لغزة. كانت العربة خالية إلا منهما وضابطين آخرين يجلسان في نهايتها، وكان الضابطان "عبد الحكيم عامر" و"زكريا محيي الدين" يدخنان، ويسليان الوقت بالنظر لصحراء سيناء عبر النافذة الزجاجية الواسعة.

فُتِحَ باب العربة القريب منهما ودخل منه ضابطٌ شابٌ أسمر، وسيمُ القسمات، نافذ النظرات، فارع القامة، وبيديه محرمة بيضاء يجفف بها الماء عن وجهه وذراعيه، وقد جدد حيويته وكانت ملامحه – على عكس زميليه – يقظة، وكانت عيناه العميقتان لامعتين،

[1] كوبري الفردان القديم أنشأه الإنجليز عام ١٩١٧م لخدمة المجهود الحربي في الحرب العالمية الأولى، وتم تجديده عام ١٩٣٠م، وكان يفتح لمرور السفن ثم يغلق لمرور القطارات فوقه، وتم تدميره في حرب ١٩٦٧م قبل إنشاء الكوبري المتحرك الحالي عام ٢٠١٠م

وهو يضع المنشفة في حقيبته، ثم يرتدي السترة والكاب، وإن ترك سترته مفتوحة بحكم حر الصيف، ثم يلتقط كتابه المفتوح من فوق المقعد الخشبي، ويجلس ليتابع القراءة.

التفت إليه "عبد الحكيم" قائلا:

- إيه يا سي "جمال"؟ ما تخليك معانا شوية! وحشاك القراية قوي يعني؟ ده إنت لسة مخلص كلية أركان من أسبوعين[2]!!

ابتسم "جمال عبد الناصر" وهو ينظر لصديقه وابن دفعته في الكلية الحربية بود، وأشعل سيجارة من علبته المعدنية وهو يجيبه قائلا:

- طيب ما انتو قاعدين بقالكم ساعتين ساكتين، وشبه نايمين كمان!
- عيني عليك باردة يا "جمال"! من أيام الكلية وإنت لو نمت ساعتين في اليوم يكفوك! احنا مش زيك يا عم.

لم يكن "حكيم" مبالغا في قوله، فهكذا كان اليوزباشي[3] الشاب ثلاثيني العمر "جمال عبد الناصر حسين" دائما، متقد النشاط، قليل النوم، وقليل الثرثرة فيما لا يفيد، كما كان كثير القراءة عموما، والقراءة في العلوم العسكرية والاستراتيجية، والتاريخ، والأدب العربي والعالمي على وجه التحديد!

---

[2] تخرج جمال عبد الناصر من كلية أركان الحرب في ١٢ مايو عام ١٩٤٨م.

[3] سافر ناصر للمعركة وهو برتبة اليوزباشي، ثم علق رتبة الصاغ بعد الوصول لفلسطين بأيام وفقا لتاريخ قرار الترقية

أجابه "جمال" باسما بعد أن أخذ نفسا عميقا من سيجارته:

- تقدر تقول عادة بالوراثة، أجدادنا في الصعيد بيصحوا مع نور الشمس، يصلوا الفجر ويفطروا، ويلبسوا الجلابية الزرقا، ويسحبوا البهيمتين، ويسرحوا على الغيط.
- بس إنت مش بتنام من العشا زيهم!

هكذا علق "زكريا"، فأجابه "جمال":

- علشان مش شقيان زيهم طول اليوم!

انتهى الحوار الباسم القصير بتلك العبارة، وعاد "حكيم" و"زكريا" للاسترخاء شبه النائم، وعاد "جمال" للنظر في كتابه، لكن ذهنه شرد من صفحة الكتاب إلى العبارة التي قالها منذ قليل. ووجد سؤالا يفرض نفسه عليه: **أحقا لست "شقيانا" مثل أجدادي؟ أم اختلفت فقط نوعية الشقاء**. وبدأ مشوار الطفولة والصبا والشباب يمر كالشريط أمام عينيه!

بدأ المشوار في ذلك البيت البسيط رقم ١٢ بشارع القنواتي المتفرع من شارع مصطفى كامل بحي باكوس في الإسكندرية، يحيطه السور الحديدي الذي يصنع إطارا لتلك الحديقة الصغيرة التي لا يتجاوز عرضها أمتارا ثلاثة، هناك ولد، حين كان والده يعمل وكيلا لمكتب بريد باكوس، وهناك قضى السنوات الخمس الأولى من عمره مع والدته، قبل أن ينتقل معها ليلحقا بوالده الذي انتقل للعمل في الخطاطبة، وفي الخطاطبة

دخل أول مدرسة ابتدائية، ولكنه لم يستمر فيها طويلا، ولم يسعفه الوقت ليكون أصدقاء طفولة كأقرانه، حين نقل الوالد من جديد فبدا لوالديه أن كثرة التنقل بين المدن وفقا لطبيعة عمل والده لن تسمح له بالاستقرار الدراسي، فقررا أن يقيم الصغير "جمال" – وهو لم يتجاوز السابعة – في كنف عمه في القاهرة، ويلتحق بمدرسة النحاسين!

قضى "جمال" عامه الأول بعيدا عن والديه وهو في الصف الثالث الإبتدائي، وكانت هذه أول مرارة يذوقها حلقه، وأول مراحل الشقاء، فقد كان ارتباطه بوالدته وثيقا، حتى أنه كتب بخطه الطفولي أكثر من عشرة خطابات خلال ذلك العام، وكانت والدته تجيبه بخطابات تفيض حنانا، كانت تنزل على قلبه بردا وسلاما! فحنانها المتدفق لم يعوضه عمه رغم حدبه ورعايته، ولم يعوضه ائتناسه بأولاد عمه! لكن ردود أمه على خطاباته توقفت فجأة قبل امتحانات نهاية العام! فقد كان الصغير الذي يناهز الثامنة على موعد مع الألم الكبير الذي جعله يكبر قبل الأوان، وجعل قلبه يعرف طعم الحزن العميق مبكراً!

أشعل "جمال" سيجارة أخرى من سيجارته، وغص حلقه، وقد استدعى صوت القطار العسكري على القضبان ذكرى رحلته من القاهرة للإسكندرية عصر ذلك اليوم من عام ١٩٢٦م بعد أن انتهت امتحانات نهاية العام! كان يمني نفسه طوال الساعات الأربع برؤية والديه وإخوته الصغار "عز العرب" و"الليثي" و"شوقي"! لكن أمنيته الأولى كانت أن يرتمي في حضن والدته! الحضن الدافيء الحنون الذي يشتاقه بكل كيانه!

وصل الصغير لمحطة مصر وسار على قدميه عبر شارع النبي دانيال ثم شارع صفية زغلول ليصل إلى محطة الرمل، ويركب ترام الرمل إلى محطة باكوس، ومنها سيرا على الأقدام حاملا حقيبته حتى وصل إلى منزله. ليجد الأسرة كاملة في انتظاره عدا والدته! كيف؟ لقد توقع أن يراها تنتظره في الشرفة، لهذا كانت عيناه معلقتين بالشرفة منذ دلف إلى شارع القنواتي! وتعجب عندما وجد الشرفة خالية! كانت تنتظره وهو عائد من المدرسة فكيف لا وهو عائد من سفر طويل؟ وغياب عام كامل؟ هل هي غاضبة منه لسبب ما وهو غافل عنه؟ لهذا توقفت الخطابات ولم يجدها في انتظاره في الشرفة؟ ولا حتى في الصالة مع والده وإخوته؟

سأل عنها فور انتهائه من السلام على والده وإخوته وتقبيله الرضيع "شوقي"! مازال يذكر وجوم والده عندما سمع سؤاله، وكيف جلس وأجلسه على ساقه وقبل رأسه بحنان وهو يحاول تخفيف وقع الخبر الصاعق! فقد توفيت والدته السيدة "فهيمة" قبل امتحانات نهاية العام بأسابيع، وخشي عليه والده من الخبر فلم يخبره.

التمعت الدموع في عيني اليوزباشي "جمال عبد الناصر" عندما تذكر تلك اللحظة، لكنه لم يبك! لقد بكى كثيرا في ذاك اليوم البعيد من طفولته، ثم لم يبك بعدها أبدها! كأنه استنفذ دموعه كلها، أو كأن الدنيا قد صغرت عنده منذ ذلك اليوم فلم يعد فيها ما يستحق البكاء! ولم يكن هذا هو التغير الوحيد الذي طرأ على "جمال" الصغير، فقد صار

أقل مرحا وأقل كلاما، كما صار انكبابه على دروسه وعلى مطالعة الكتب أكثر، كأنها يلجأ إلى عالم أثيري يعوضه عن فقدان الركن الأساسي من أركان طفولته!

تزوج والده بعد مرور عدة أشهر، وكانت الزوجة الجديدة سيدة طيبة، لكنها أبدا لم تحل محل والدته، ولم يساعده التنقل المستمر بين المدارس على تكوين أصدقاء، فمن النحاسين انتقل عائدا للإسكندرية وملتحقا بمدرسة العطارين، ثم إلى مدرسة حلوان الثانوية الداخلية بالقاهرة لمدة عامين، ثم إلى مدرسة رأس التين بالإسكندرية من جديد!

تذكر "جمال" تلك الساعات التي قضاها في قسم البوليس حتى جاء والده ليتسلمه! فقد سار "جمال" ابن الخامسة عشرة في مظاهرة للمرة الأولى تهتف بسقوط دستور ١٩٣٠م[4]! وسقوط الاحتلال. بعدها قرر والده أن يعود "جمال" للقاهرة من جديد، ليبتعد عن مظاهرات الثغر المتلاحقة في تلك الأيام. لكن "جمال" الذي التحق في القاهرة بمدرسة نهضة مصر الثانوية بحي الظاهر، قاد مظاهرة بنفسه خرجت من المدرسة تهتف بسقوط الاحتلال، وأصيب بجرح في جبينه عندما هاجم البوليس الطلاب!!

[4] حقيقة، وهي المظاهرة التي أشار لها "عبد الناصر" لاحقا في خطاب المنشية عام ١٩٥٤م قبل تعرضه لمحاولة الاغتيال برصاص جماعة الإخوان!

تحسس اليوزباشي "جمال" جبينه في موضع الجرح، ولم يكن يعلم أنه على موعد مع جرح جديد على أرض فلسطين! كأن جزء من قدره أن يحمل على جسده علامات كل مرحلة من مراحل نضاله!

صر في سيناء خلال الرحلة إلى فلسطين

(٢)

بين المجدل وأسدود

الزمان: مساء الخميس ٣ يونيو/ صباح الجمعة ٤ يونيو ١٩٤٨م

المكان: بلدة أسدود على ساحل المتوسط في منتصف المسافة بين غزة ويافا

أخذ "حكيم" و"زكريا" يتحدثان عن المعركة التي يقبلون عليها، فلم يخرج حديثهما عما تداولته الصحف العربية وقتها، ومجمله أن الجيوش العربية تذهب لتأديب عصابات اليهود التي اجترأت على ارتكاب مجازر وجرائم ضد المواطنين الفلسطينيين، سواء قبل إنهاء بريطانيا للانتداب أو بعده، وكيف جاء هذا كحلقة أخيرة من مؤامرة بدأت بعيد الحرب العالمية الأولى بمعاهدة سايكس-بيكو! وتحدثا بأن نتيجة الحرب محسومة لصالح العرب! وهنا وضع "ناصر" كتابه جانبا واشترك في الحديث قائلا:

- ياريت أكون غلطان! بس أنا مش متأكد من النصر زيكم.
- ليه يا "جمال"؟ عصابات الهاجاناة وشتيرن وآرجون هتغلب جيوش مصر وسوريا والعراق والأردن ولبنان والسعودية مجتمعة؟

هكذا علق "زكريا" فأجابه "جمال" بقوله:

- الحرب الحديثة بتعتمد على أربع ركايز أساسية؛ (١) الجندي المدرب على أرض المعركة وطبيعتها والمستوعب لسلاحه، (٢) العقيدة القتالية الراسخة، (٣) قوة النيران

وتطور السلاح، (٤) ثم القيادة المؤهلة من أول القيادة العامة لحد قيادات الكتايب والسرايا. تعالوا نقيم وضع الجيوش العربية مقابل العدو بناء على الركائز دي.

وهكذا شرع اليوزباشي "جمال عبد الناصر" يتحدث عن مقاتلي الجيوش العربية وعدم إعدادهم بالصورة المطلوبة فضلا عن عدم خبرتهم بأرض المعركة، مقابل عصابات صهيونية تعمل على تلك الأرض منذ ١٩٤٢م، فضلا عن غياب العقيدة القتالية، حيث لا يعرف معظم هؤلاء الجنود لماذا يقاتلون، وأن كل ما قيل في الصحف والراديو للناس من تسطيح للقضية، وتصوير للحرب بأنها مساندة لشعب شقيق هو كلام فارغ! وكان على الحكومات العربية أن تشرح للشعوب أنها تدافع عن نفسها ضد الصهيونية والاستعمار على أرض فلسطين وليست تدافع عن فلسطين وحسب. ثم تحدث عن السلاح وكيف أن مصدر سلاح الجيوش العربية هو نفس مصدر سلاح الصهاينة! وهو بريطانيا! وهي بهذا تضمن تفوق النيران اليهودية على العرب، ولم تعلن إنتهاء الانتداب إلا بعد أن اطمأنت أن عصاباتهم صارت متمكنة ومتفوقة، وقادرة على مواجهة رد الفعل العربي المتوقع. وختم قائلا بصوت هامس:

- أما القيادة فأظن كلنا عارفين اللواء "المواوي" كويس! وباقي الجيوش العربية مش أحسن حالا بكتير، كفاية القيادة البريطانية للجيش الأردني! الجنرال "جلوب" والكولونيل "نيومان" وغيرهم! الأهم من ده كله عدم وجود قيادة ورئاسة أركان موحدة للجيوش العربية.

- حيلك يا "جمال"! ده إنت شركتنا خالص!
- زي ما قلت! يا ريت أكون غلطان. في النهاية إحنا جنود ولازم نؤدي واجبنا ونحارب بشرف مهما كانت الظروف.

سرت الحركة في أرجاء القطار عندما هدأت سرعته وهو يدخل محطة غزة، ونزل الضباط الثلاثة مع غيرهم ليجدوا سيارات تنتظر كل مجموعة منهم لتتوجه بها إلى كتيبتها، فودع "جمال" رفيقيه وركب السيارة "هامر" التي كانت تنتظره لتحمله إلى نقطة تمركز الكتيبة السادسة خارج غزة، بينما ركب "عبد الحكيم" و"زكريا" سيارة أخرى تتجه إلى أسدود.

في الطريق سأل "جمال" عن الضباط الموجودين في غزة، وعندما سمع اسم الصاغ "محمود لبيب"، وعرف أنه منتدب في معسكر المتطوعين بغزة بناء على طلبه! لفت هذا انتباهه، وأشعل سيجارة وهو يفكر في معنى اهتمام "لبيب" بمعسكر المتطوعين تحديدا! كان يعرف أن "لبيب" أحد عناصر جماعة الإخوان المسلمين داخل الجيش المصري. وكان وجود عناصر لجماعة دينية داخل الجيش مقلقا له! فماذا يفعل "لبيب" هنا تحديدا؟ سؤال ستحمل إجابته أحداث عنف في مصر، تزامنت مع أحداث الحرب مباشرة فيما بعد، لكنه في تلك اللحظة استدعى وهو في السيارة ذكرياته مع ذلك التنظيم.

بدأت نقاط التماس بين "جمال" وبين الإخوان منذ كان في منقباد، بعيد تخرجه من الكلية الحربية، حيث التقى وزميله "عباس ناصر" بأحد الضباط الإخوان، والذي بدأ يحاول استقطابهما، وعندما سأله "عباس" عن رأيه فيما سمع من الضابط الإخواني، وهل يفكر حقا في الانضمام لذلك التنظيم، أجابه:

- أكيد لأ! أنا مهتم بس بالتعرف على الشكل التنظيمي ودرجة اختراقهم لصفوف الجيش، لكن فكرة الانضمام ليهم دي انتهت للأبد يوم ما حضرت أنا وإنت درس التلات بتاع الشيخ "البنا". مصر وجيشها في ظل الاحتلال محتاجة الوطنية اللي تجمع مش الدعوات الدينية اللي تفرق، مش هيصلح أحوالها ظباط مرشدهم بيمد لهم إيده مقلوبة عشان يبوسوها! مصر مش هينقذها غير ظباط أحرار مش أتباع يا "عباس"[5].

ثم كانت نقطة التماس الثانية عندما دعاه "عبد المنعم عبد الرؤوف" للتعرف ببعض الضباط "الوطنيين"، وعندما التقى بهم كان من بينهم "لبيب"! وعرف أنهم جميعا منتمون لتنظيم الإخوان. سمع منهم "جمال" في زيارته لمقرهم، ولم يتحدث كثيرا، ثم فارقهم ولم

[5] الإجابة بهذا المعنى وفقا لشهادة اللواء عباس ناصر نفسه، في الحوار الصحفي الذي أجراه الأستاذ "هاني بدر الدين" في الأهرام العربي بتاريخ ٢٩ سبتمبر ٢٠١٢م، الذي شهد بنفور "ناصر" من الجماعة بعد حضور درس الثلاثاء وأنهم حاولوا تجنيد الزعيم الراحل في شبابه وفشلوا ولم يقسم أبدا على المصحف والمسدس كما زعموا وإن احتفظ بصلات معهم من خلال بعض الضباط الأحرار مثل عبد المنعم عبد الرؤوف.

يصرح لهم بانطباعه. لكنه اعتذر عندما طلب منه "عبد الرؤوف" الانضمام للإخوان، بالقسم على المصحف والمسدس[6].

وصلت السيارة الهامر لمقر الكتيبة السادسة التي تسلم "جمال" قيادة أركانها فور وصوله، وبعد أن وضع حقيبة ملابسه في الغرفة الضيقة المخصصة لإقامته المؤقتة خرج يسأل عن الصاغ "محمود لبيب" فقيل له أنه في معسكر المتطوعين، فزادت شكوك "جمال"، واتجه نحو مخيم المتطوعين من فوره، لكنه لم يجد "لبيباً"[7] هناك!

في المعسكر سأل زميله اليوزباشي "أبو عوف" عن تركيبة المتطوعين فأجابه:

- مصريين وسوريين وعراقيين ولبنانيين ومغاربة، واللي قدامك دول جزء من حوالي ٣٠٠٠ متطوع منتشرين في كل مناطق فلسطين[8].
- يعني مش كلهم من الإخوان زي ما بعض الصحف بتقول في مصر؟
- أكيد فيهم عشرات من الإخوان، زي ما فيهم ماركسيين وقوميين! مش بس كدة، فيهم المسلم الشيعي، وفيهم الدرزي، وفيهم المسيحي! هيبقوا إخوان إزاي دول؟!!!

---

[6] وهو ما لم يحدث أبدا، رغم دعاوى ومزاعم الإخوان، والتي تطورت من القول بعضوية ناصر في التنظيم للقول بأن مؤسس الضباط الأحرار هو ذاك المدعو "محمود لبيب" وأن ناصر ورثه بعد وفاته! ووجه الحقيقة أن ناصر حرص على وجود صلات مع كافة التنظيمات وقتها حتى لا تكون ضده عندما تقوم الثورة

[7] وفقا لما سجله في يومياته يوم ٣ يونيو

[8] نسب الإخوان لأنفسهم هذا العدد كاملا! والحقيقة أنها قوات عربية من أفواج المقاومة التي أرسلت لفلسطين بدعم مالي من جامعة الدول العربية، وقد نظمت تلك الأفواج اللجنة العسكرية التي شكلتها الجامعة لهذا الغرض وبدأت في إرسال أفواج اليرموك الثلاثة من مصر وسوريا وفلسطين، وفوج الحسين من شيعة العراق، وفوج الدروز من لبنان!

هكذا أجابه "عوف" ضاحكا، قبل أن يسأله "جمال":

- وإيه دور الصاغ "محمود بك لبيب"؟
- ظابط من المتطوعين لتدريب القوات دي، لكن القائد هو طبعا القائمقام "أحمد عبد العزيز"[9]، عمود المقاومة الصلب اللي جمع القوات اللي قدامك دي ودربها وجهزها قبل ما الدول العربية تقرر دخول الحرب بجيوشها.

عاد "جمال" بعد هذه الجولة ليجد أمرا بالتحرك ظهر اليوم التالي إلى أسدود حتى تقوم الكتيبة السادسة باستلام مواقع الكتيبة التاسعة فيها. في المساء أضاء "ناصر" مصباح الكيروسين (لمبة الجاز) وأخرج دفتر اليوميات الذي وجده في قيادة أركان الكتيبة عند وصوله، ليضعه أمامه على بعض شكاير الرمال، وسجل في سطرين أهم ما مر به في يومه! ثم سجل انطباعات الوصول الأولى. خاصة الحالة المعنوية السيئة للضباط والأفراد بعد معركة "الدنجور"، فقد تحركت الكتيبة لتطهير الدنجور من اليهود بدون استطلاع أو إعداد للهجوم، ولهذا استطاعت قوة يهودية صغيرة أن تردهم، وأن تكبدهم خسائرا كبيرة في الأرواح، لهذا كتب "جمال" في يومياته:

"تركت الكتيبة وراءها على أرض المعركة حول الدنجور بعض الضحايا، وكان من الضحايا إيمانها بالحرب التي تخوضها"[10]

---

[9] فيما بعد ستحتار جماعة الإخوان في تاريخها المزيف بين ادعائين: الأول أن قائد المتطوعين كان الصاغ "محمود لبيب" والثاني هو ادعاء أن البطل الشهيد "أحمد عبد العزيز" نفسه كان منهم!!

وزاد الأمر إرباكا ما سمعه الجنود عند عودتهم من راديو القاهرة، حين أذاع خبر نجاح القوات المصرية في تطهير الدنجور واحتلالها[11]!

لم يكن اليوزباشي "جمال عبد الناصر" يعرف الأهمية التي ستحوزها تلك اليوميات ذات يوم! كان الضابط الشاب يكتب لنفسه يوميات أول حرب يدخلها، ولم يتصور أن عينا ستقع يوما على ما خطه بيديه!

في الصباح[12] كلف قائد الكتيبة رئيس أركانها؛ اليوزباشي "جمال"، بقيادة سرية استطلاع تتقدم الكتيبة عبر خط السير المرسوم، فتحرك "جمال" بجنود السرية من غزة في الواحدة والنصف ظهرا، متجها للشمال الشرقي حيث طلب منه اصطحاب جماعة مدافع الهاون ٣ رطل وجماعة المدافع ٦ رطل المرابطة في قرية "دير سنيد"، ثم توجه نحو "المجدل"[13] لتأمين خطر سير الكتيبة، فوجدها خالية من العناصر اليهودية.

---

10 العبارة حقيقية من واقع اليوميات

11 لاشك أن البيانات العسكرية الكاذبة في أي حرب خطأ كبير، لكن لماذا نستدعي دائما وقوعنا في هذا الخطأ في حرب يونيو ١٩٦٧، خلال الأيام الثلاثة الأولى، وننسى أن هذا الخطأ استمر لعدة شهور في حرب فلسطين؟ إنها الرغبة الدائمة في جلد الحقبة الناصرية من قبل خصومها، ولا تفسير غير هذا

12 الوقائع والتفاصيل التالية وفقا لما سجله ناصر في يوم الجمعة ٤ يونيو

13 عسقلان قديما

في الجدل رأى "جمال" بعضا من ملامح مصر! آثار العمارة المملوكية في مسجدها الكبير، ملامح أهلها السمراء الرائقة، وهذا الشيخ العجوز الجالس عند جزع الشجرة يغني لنفسه منفردا:

وسألت الإسم؟ قالت لي: سارة

زيِّك يا حلوِة ما في في الحارة

قالت لي الزيجة بدها جسارة

كلم أبويا .. ولا تيجي لهونا[14]

ذكرته الأغنية بأهازيج الريف والصوت الشجي لناي الصعيد! هذا الوطن العربي مشدود الأوصال بما هو أكثر من اللغة والتاريخ والعقائد! بمحصلتها جميعا؛ بالمزيج الحضاري المكون لشخصيته!

في الرابعة عصرا وصلت سرية الاستطلاع لأسدود، ووجد "جمال" صديقه "حكيم" في انتظاره على مشارف الموقع، وحاول أن يصحبه لخيمته ليرتاح من عناء الطريق لكن "جمال" أجابه:

- عاوز أمر على دفاعات الموقع الأول يا "حكيم"!

[14] من أغاني الجدل القديمة قبل التهجير، من بحث للكاتب خليل محمود مهدي

- تعالى ناخد "الهامر" ونمر على الخطوط الأمامية، حظك حلو النهاردة هادي لحد دلوقت، إمبارح كان الضرب شغال طول الليل. اليهود حاولوا يهاجموا القوات، بس الحمد لله قدرنا نردهم رغم الخساير في الأرواح والمعدات.

قفز "حكيم" لمقعد قيادة "الهامر" وركب "جمال" إلى جواره، وتحركت السيارة بمحازاة الخطوط الأمامية. تعجب "جمال" من اصطفاف جميع القوات على شكل خط بطول أربعة كيلومترات، فعلق قائلا:

- إيه التهريج ده؟ الموقع كله خط أمامي؟ ومن غير دفاعات غير حفر الأفراد؟ مفيش عمق ولا قوات احتياط[15]؟!! طبعا لازم الخساير إمبارح تكون كبيرة بالشكل ده!
- "الرحماني" بيه هو قائد الكتيبة يا سيدي، وإنت عارفه، عموما بكرة كتيبتك هتستلم الموقع وتقدر تغير اللي إنت عايزه

صمت "جمال" وهو يفكر في هذا الوضع الذي يراه! لم يكن يتوقع الكثير من التخطيط والتنظيم الاحترافي للمعركة، ولكن لهذه الدرجة من الإهمال؟ لماذا تمددت القوات المصرية بسرعة على الساحل ولم تهتم بتأمين خطوط مواصلاتها التي صارت أطول من اللازم، ولم تهتم بالعمق الذي يحتله اليهود بمستعمراتهم! هناك رغبة في تمدد الجيش المصري على أكبر رقعة من أرض فلسطين، للإيحاء بدور كبير إعلاميا، وهذا التمدد يخل بالمبدأ العسكري المعروف بالكتلة الصلبة، حيث تحرص الجيوش على عدم التمدد العشوائي

[15] وفقا لتعليقات "عبد الناصر" الواردة في مذكراته تحت يوم ٤ يونيو ١٩٨٤م

وعلى التأمين الكامل لخطوط مواصلاتها وأطراف ألويتها قبل التفكير في التحرك بخطوة جديدة للأمام! هذا ما كان يدرسه في كلية الأركان!

انطلق "عبد الحكيم" مع كتيبته نحو "دير سنيد" وقد صدرت الأوامر لهم باقتحامها، وبدأت أخبار المعركة تصل لجمال، لقد كانت أعداد الضحايا تتزايد بشكل مستمر، الأمر الذي دفع "جمال" لاستقلال الهامر وقيادتها بنفسه نحو مستشفى غزة العسكري، وهناك كانت الأسِرَّة كلها مشغولة بالجرحى. سأل عن "عبد الحكيم" فعلم أنه كان بخير في آخر مرة شوهد فيها! عندما عاد "جمال" لكتيبته، وجلس كعادته في المساء يستمع لراديو القاهرة، كانت الأخبار تتحدث عن النصر الكبير الذي حققته القوات المصرية في دير سنيد!!

لم يكن يعرف أن عشرين عاما سوف تمر، ثم تحين معركة وهو في موقع القائد الأعلى، فتقع القيادة العسكرية – التي كلفها – بأخطاء فادحة مشابهة، ليظل هذا التشابه مصدر ألمه وكمده منذ وقعت الواقعة في ١٩٦٧م وحتى يلقى ربه.

صورة نادرة لعبد الناصر في حرب فلسطين

(٣)

الدموع .. والدم

الزمان: ١٢ يوليو ١٩٤٨م

المكان: كامب جوليس، بالقرب من عراق سويدان

تسلمت الكتيبة السادسة مواقعها في أسدود اعتبارا من السبت ٥ يونيو، وقام "جمال" بتغيير التشكيل الدفاعي قبل أن يستقر في مقر رئاسة الكتيبة في الحديقة القريبة من طريق المجدل-أسدود. بدأت المعارك مع آخر ضوء حين هاجم اليهود بمدفعية الميدان! فَهِم أفراد الكتيبة منذ اليوم الأول أن وضعهم هنا يختلف عن الأوضاع في غزة، فموقعهم الآن محاط بالمستوطنات من كل جانب. وقد استمر الهجوم طوال الليل، ثم تبعته أضواء متحركة تظهر من خطوط العدو، فبدأ الجنود التعامل معها بذخيرة الأفراد، حتى فطن "جمال" للخدعة وأمر بإطلاق ذخيرة كاشفة، ليهدأ الجنود بعد أن تأكدوا من عدم وجود هجوم من مشاة العدو، وأن الأضواء المتحركة هدفها استنفاذ ذخيرتهم.

بعد الظهر اتصل به "عبد الحكيم" تليفونيا، ليلخص له أخبار معركة "دير سنيد"، تحدث عن تفوق العدو في تسليح الأفراد، وختم كلامه بأن الافتقار للسلاح وللخطط يدل على أنهم يخوضون حربا سياسية، أكثر من كونها حربا عسكرية حقيقية، وهنا قاطعه "جمال" معترضا:

- مفيش حاجة اسمها حرب سياسية يا "حكيم". الاختيار العسكري قرار بتاخده القيادة السياسية كأحد خيارات الصراع، لكن خوض الحرب بعقلية السياسة خطأ كبير، مفيش جيش خاض معركة سياسية إلا وهزم فيها! زي هزيمة "ويفل" في معارك اليونان[16]

لم يتمكن "جمال" من مهاتفة زوجته السيدة "تحية" ووالده قبل التاسع والعشرين من يونيو، بعد أكثر من ثلاثة أسابيع من وصوله لأرض فلسطين. كانت المكالمة مع زوجته قصيرة وفق مقتضى الحال. سألته أكثر من مرة عن موعد عودته، وبالطبع لم تلق جوابا شافيا، فهو نفسه لا يعلم. كانت "تحية" دائما مثالا للزوجة المتفهمة التي لم تثقل كاهله أبدا – ولا حتى بكثرة الأسئلة – طوال أربعة أعوام هي عمر زواجهما، لكنه الآن يتفهم تماما سبب لهفتها تلك. فهي تجربة الحرب الأولى له، ولها معه بالتبعية!

في مساء ذلك اليوم التقى بحكيم الذي عاد من معركة "دير سنيد"، وكانت الأوامر قد صدرت لكتيبته بالهجوم على مستعمرة "نتساليم" اليهودية، ودعاه "جمال" لشرب الشاي في خيمته، حين قال له "حكيم":

- كان عندك حق واحنا في القطر يا "جمال"! متصورتش إن عصابات الصهاينة مسيطرة على الأرض بالشكل ده.
- لو مكانتش مسيطرة كان الإنجليز أجلوا إعلان نهاية الانتداب لحد ما تسيطر!

16 هذا هو الرأي الذي سجله "جمال" في يومياته نصيا

وكان "جمال" محقا! فقد أتى الإنجليز انتدابهم في ١٥ مايو ١٩٤٨م بعد أن تأكدوا من وجود أكثر من أربعين ألف صهيوني مسلح ومدرب من عصابات الهاجاناة وشتيرن وغيرها! وهو أمر بدأ الترتيب له مبكرا منذ ١٩٤٢م وتسارعت وتيرته على قدم وساق منذ خريف ١٩٤٧م.

سأله "جمال":

- تفتكر هتواجهوا في "نتساليم" نفس الدفاع القوي اللي واجهتوه في دير سنيد؟
- المرة دي إحنا جاهزين أكتر! الظباط الشبان معنوياتهم ممتازة رغم خسارة دير سنيد، عملت قرعة علشان نختار السرايا الأمامية، فتطوع اليوزباشي "محمود خليف" للتقدم بسريته، شاب رائع، إنت قابلته قبل كدة يا "جمال"، واتكلمت معاه "في موضوعنا"[17] وشفت درجة حماسه ووطنيته بنفسك.

حان موعد النوم، وكان قصف المدفعية اليهودية متصلا على أسدود، فصدرت الأوامر بالنوم في الخنادق، ولهذا افترش "عبد الحكيم" و"جمال" حفرة حول أحد أشجار

[17] إشارة جمال عبد الناصر في يومياته، طبعة آخر ساعة المنشورة في مارس وإبريل عام ١٩٥٥م، والمجموعة في كتاب بتحقيق محمود صبيح، في صفحة ٣١١، لليوزباشي محمود خليف، والذي استشهد في معركة نتساليم، في يونيو ١٩٤٨، بوصفه أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، تثبت عدم دقة القول بأن الحركة ولدت في حرب فلسطين، حيث لم يكن ناصر قد التقاه في أحداث الحرب قبل شهادته، وهو ما يجعل بداية الحركة في القاهرة وقبل أحداث الحرب. لكن تنظيما آخر هو الإخوان المسلمون نشر هذه الفكرة حتى قال بها العدو والصديق، لينتحل لنفسه صلة بنشأة الحركة، نظرا لوجود بعض عناصره في حرب فلسطين.

البرتقال، ناما فيها حتى الصباح، قبل أن يتحرك "حكيم" ليبدأ الزحف بكتيبته نحو نتساليم. ودعه "جمال" قائلا:

- عقبالنا .. لما تصدر لنا أوامر بالاشتباك
- قريب إن شاء الله. خلي بالك من نفسك.

بعد يومين وصلت أخبار أول نصر على العدو في نبتساليم! فسعد بها الجميع أيما سعادة، رغم النبأ المحزن للكتيبة عامة ولجمال خاصة، نبأ استشهاد اليوزباشي "محمود خليف" بعد بطولته التي أظهرها في ميدان المعركة، فضلا عن إصابة "حكيم" بشظية وإن كان قد نجا منها وخرج من المستشفى الميداني.

مرت الأيام التالية متشابهة بغير اشتباكات عنيفة مع العدو، حتى كان يوم الثامن من يوليو، حيث صدرت أوامر من قيادة اللواء للكتيبة السادسة بالتقدم لاحتلال معسكر جوليس. ذلك المعسكر الإنجليزي القريب من عراق سويدان والذي احتله الصهاينة واتخذوا منه نقطة حصينة لتحرك هجومهم الليلي على أطراف الجيش المصري. وفي مساء التاسع من يوليو تحرك "جمال" مع زملائه "إسماعيل" و"رأفت" و"كمال بشارة" لاستشكاف كامب جوليس، وتسلل الأربعة لحديقة قريبة من الكامب تسمح لهم بالرؤية المباشرة، فقام "جمال" برفع الواقع ورسم تشكيلات العدو ومدرعاته رسما تخطيطيا.

وعندما بدأت الكتيبة في التحرك للاشتباك بالعدو انكشفت مأساة الحرب الكبرى أمام قائد الأركان الشاب! فقد كان في مقر رئاسة الكتيبة مع قائدها "جاد بك"، والذي غير في التشكيل القتالي قبل بداية الهجوم ببرهة قصيرة، كما طلب تغيير مقر رئاسة الكتيبة الذي يوجد فيه حين اتضح له أنه في مرمى نيران العدو! ثم انتهى الأمر بتوجه القائد للخطوط الخلفية تاركا مقر قيادة الكتيبة لرئيس أركانها (جمال)!! كما طلب من "جمال" أن يتولى قيادة السرية الأولى مباشرة بالتواصل مع أفرادها لأن قائدها استشهد في أرض المعركة! ثم عاد وأصدر له أمرا بالخروج من مركز القيادة مع جماعة الهاون والاقتراب من جوليس لقصفها. كان باديا على قائد الكتيبة أنه فقد أعصابه تماما! وتحير "جمال" من تلك الأوامر المتضاربة، كيف يمكنه قيادة الكتيبة بدلا من "جاد" ومتابعة عمليات السرية الأولى، والخروج بذات الوقت مع جماعة الهاون!

خرج "جمال" بالفعل مع جماعة الهاون المكونة من أربعة مدافع من فئة ١٢٠ ملي. حتى استقر بها أعلى ربوة مكنتها من قصف مواقع العدو، ثم عاد ليحاول السيطرة على زمام الكتيبة من موقع القيادة الذي تركه "جاد"، عاد عبر التسلل في حقل من حقول الذرة المحيط بكامب جوليس، والتقى في طريقه بأحد عناصر الكتيبة، والذي أخبره باستشهاد "إسماعيل محيي الدين"! هذا هو الموقف الوحيد الذي فاضت فيه عيون "جمال عبد الناصر" خلال حرب فلسطين! الجنود يسقطون في اقتحام يفتقر للقيادة الحقيقية،

وهاهو رفيق سلاحه يسقط شهيدا، لماذا كان هذا الموقف بالذات هو الموقف الذي أجرى الدمع العصي في عين جفت الدموع بها من طفولتها الباكرة؟

وصل لمقر رياسة الكتيبة، وكان "جاد" قد اختفى منه منذ أكثر من ساعة، فحاول "جمال" التفاعل مع الإشارات الواردة من السرايا المقاتلة، بعضها يطلب الأوامر الواضحة للعمليات، وبعضها يطلب إمداد الذخيرة! وبعد ساعتين من القتال وجد "عبد الناصر" جندي مراسلة يدخل عليه مقر القيادة ويبلغه أوامر "جاد بك" بالانسحاب لمنطقة الجنائن! وهنا ثارت ثائرة "عبد الناصر"! القوات مشتبكة ووضعها القتالي ممتاز، فلماذا الانسحاب؟!! وهنا قام "جمال" بعمل كاد أن يعرضه لمحاكمة عسكرية، فقد اتصل بقائد اللواء مخترقا قواعد التسلسل القيادي في الجيش! وأخبر اللواء بالوضع كاملا وبأوامر قائد الكتيبة، فطلب منه قائد اللواء أن يستمر في موقعه ولا ينفذ أوامر قائده المباشر.

لكن عناد قائد الكتيبة "جاد بك" لم يتوقف! قام بسحب كافة السرايا التي نفذ قادتها أوامره، عدا السرية الأولى التي كان "جمال" يقودها مباشرة بعد استشهاد قائدها، وبهذا كاد العدو يحيط بالسرية الأولى من كافة الجوانب! عندما علم "جمال" بانسحاب كافة السرايا، وأن جوانب السرية الأولى صارت مكشوفة، وأن الاتصال بها انقطع بالفعل، تأكد من وضع مسدسه في قرابه، وخرج من خيمته متجها لموقع تمركز قوات السرية الأولى خلف أحد الحوائط المتهدمة الذي يتخذونه ساترا، ونجح "جمال" في العودة

بهم رغم الخسائر التي وقعت بقوات السرية بعد تعرية جوانبها! فقد فقدت ١٥ مقاتلا وجرح آخرون!!

عندما التقت عيناه بقائد الكتيبة خاطبه بأسلوب حاد، قائلا:

- يا "جاد بك" سيادتك عرضت حياة أفراد السرية الأولى كاملة للخطر بسحب باقي السرايا من حوالينا! اليهود كانوا محاوطينا تقريبا ولولا نزول الظلام مكناش قدرنا ننسحب!
- يوزباشي "جمال"، إنت اللي اتسببت في ده، ولا فاكر اتصالك بقائد اللواء هيعفيك من المسئولية؟ بكرة الصبح هوقفك من قيادة أركان الكتيبة وأرجعك القاهرة للتحقيق معاك.
- وأنا منتظر التحقيق يا أفندم، التحقيق في كل أحداث قيادة الكتيبة إمبارح، ومن واقع الإشارات اللي معايا.

ارتعد قلب "جاد" لهذا التهديد السافر، واحتار بين أمرين كليهما مر! هل يترك هذا الضابط الذي تجاوزه؟ أم يحوله للتحقيق ويعرض نفسه معه للمساءلة؟

لكن الصباح قد أتى بأوامر واضحة من قيادة اللواء! عزل "جاد سالم بك" من قيادة الكتيبة وتسليم قيادتها لحسين كامل بك! وكذلك جاءت أوامر باحتلال السرية الأولى لقرية "جوليس"! سأل "جمال" قائد الكتيبة ليتأكد مما سمعه:

- كامب جوليس ولا جوليس؟
- إيه الفرق يعني يا جمال؟
- يا افندم "كامب جوليس" اللي حاولنا تطهيره إمبارح وفشلنا بيقع على تلة مرتفعة! علشان كدة موقعه مهم. قرية "جوليس" تقع على سفح التل، يعني احتلالها يخلينا تحت نيران العدو اللي هتنزل من كامب جوليس زي المطر! بكدة "جوليس" هتكون مصيدة مثالية للقوات.

فَرَد "جمال" أمام القائد مجموعة من الصور التي التقطتها الطائرات للمنطقة، ووضح له الفارق بين الموقعين عليها! وهنا اقتنع "حسين كامل" بوجوب مناقشة قيادة اللواء في الأمر الصادر منها، وهل تعني بالأمر الصادر منها محاولة احتلال "كامب جوليس" من جديد، أم تعني القرية حقا!

هذه المرة لم تعاند القيادة، وإلا لتمت تصفية السرية الأولى ومعها القوات المساعدة في مصيدة "جوليس"! ومع هذا صدر في اليوم التالي أمراً جديداً لم يكن مدروسا بدوره بما يكفي، فقد صدرت الأوامر للسرية الأولى باحتلال موقع حاكم على طرق مواصلات مستعمرات العدو في النقب، هو طريق "عبديس–جوليس"، وكان معنى هذا أن تصبح السرية في مرمى نيران العدو التي تنهمر بكثافة من المدافع الأوتوماتيكية المركبة على تلال النجبة! فكان المنطقي تطهير التلال أولا ثم احتلال ذلك الموقع الحاكم! لكن القيادة

فضلت احتلاله مبكرا لأهميته الحيوية، ولصعوبة تطهير تلك التلال واحتياجها لوقت طويل!

لهذا جاء قائد السرية الأولى المكلف منذ الأمس بقيادتها عوضا عن قائدها الشهيد لجمال بوصفه أركان حرب الكتيبة، ووقف أمامه وهو يفرد خريطة ملونة للمنطقة، ويشير للموقع المطلوب احتلاله، ولمرتفعات النجبة المحيطة به ويقول:

- دي مغامرة مجنونة!
- لكنها حيوية قوي في المرحلة دي! أنا جاي معاك، موعدنا مع أول ضوء!

كان موقع "جمال" الطبيعي بوصفه قائدا لأركان الكتيبة في موقع الرياسة مع قائد الكتيبة، وكان يعلق على تعمد بعض الضباط الخروج دون مبرر مع القوات، وتركهم مقرات الرياسة فارغة، بأن هذه "مظاهرات شجاعة بدون مبرر عسكري معقول"، لكنه فضل الخروج هذه المرة!! فعليه تشجيع قائد السرية، فالموقف خطر فعلا لكن المهمة حيوية كذلك.

وبالفعل تحرك مع السرية عند أول ضوء، واحتلت السرية مواقعها رغم كثافة النيران الموجهة من مرتفعات نجبا نحوها، ومن بعض قوات العدو التي اتخذت من حقول الذرة ساترا واقتربت لتشتبك مع القوة المصرية! وهكذا وقع اشتباك "جمال" الشخصي الأول مع العدو! وعندما احتدم القتال لم يعد المسدس مجديا، فالتقط بندقية الجندي الذي سقط

شهيدا بالقرب منه، وكانت من طراز "تومسون نصف آلي" الشهيرة باسم "تومي" إنجليزية الصنع، وأخذ ساترا من أحد ناقلات الجنود التي كانت تعرف في ذلك الوقت في لغة العسكرية باسم "الحمالات"، كان رصاص العدو كثيفا ويأتي من ناحية أحد التلال! بالكاد سمع صوت زميله "سامي" وهو يقترح عليه:

- كدة هنفضل طول اليوم هنا! خلينا نتحرك بالحمالة ناحية التلة اللي هناك ونكشف موقع إطلاق النار.
- طيب اسحب الفيكرز على الحمالة وياللا بينا.

تعاون ثلاثة جنود مع "سامي" لسحب بندقية الفيكرز الآلية – إنجليزية الصنع المثبتة على حامل الإطلاق – نحو الحمالة، واستقلها "جمال" و"سامي" مع الجنود الثلاثة وانطلقوا نحو التلال، لكنهم عند وصولهم وجدوا التلة خالية، ووجدوا فوارغ الطلقات في موقعين أكدت لهم انسحاب الصهاينة من فوقها لتوهم.

في طريق العودة، وكان يركب بجوار "سامي" في المقعد الأمامي للناقلة البدائية، حانت التفاتة من "سامي" نحو قميص "عبد الناصر" فامتقع وجهه وهو يقول:

- إنت اتصبت يا جمال؟

تجهم وجه "جمال" وهو ينظر لقميصه المبلل بدمه، ليرى الجرح فوق جيبه الأيسر، عندما تحسس جلده تحت القميص وجد الجرح فوق القلب مباشرة، فبدأ يشعر بالدوار!

وكان أول ما خطر بباله بطبيعة الحال هو "تحية" وابنتيه "هدى" و"منى"! حاول "سامي" إيقاف السيارة، فطلب منه "جمال" الاستمرار، ثم طلب منه طلبا غريبا! طلب منه أن يشعل له سيجارة[18]، وقد تناولها "جمال" بيمناه، بينما يسراه تضغط على جرح صدره لتقلل نزيف الدماء، وسحب من السيجارة نفسا عميقا!

لم يكن خائفا .. لم يكن نادما .. لم يكن حزينا .. كان بعقله سؤال واحد يدور؛ هل هذه هي النهاية؟ هل هذه هي النهاية؟

18 حقيقة وفقا لليوميات

عبد الناصر في فلسطين

(٤)

الهموم تختارنا

الزمان: ١٥ يوليو ١٩٤٨م

المكان: مستمعرة بيرون إسحق، تقاطع طرق عراق سويدان

دخل "جمال" مستشفى الجدل العسكري وهو يسير على قدميه، ويرفض مساعدة رفاقه على السير، ويضغط جرح صدره بالمنديل الغارق في الدماء. في غرفة العمليات الصغرى رقد "جمال" بغير تعقيم وبملابسه العسكرية أمام الطبيب الشاب، وهو يقول:

- صارحني بحقيقة الوضع بدون تردد لو سمحت

خلع الممرض عن "جمال" ملابسه كاشفا جرح صدره، وأضاء الطبيب كشاف العمليات العلوي، وهو ينحني على الجرح ليفحصه، ويزيل عنه الدماء المتخثرة بالشاش المعقم المغموس بالكحول، هز الطبيب رأسه ولم يجب "جمال" الذي كرر عليه السؤال، فعلق الطبيب قائلا:

- سامحني، الجرح غريب شوية، مبنشوفش الشكل ده كل يوم. قل لي؛ إنت اتصبت إزاي؟

طبيب المستشفى العسكري لم ير مثل هذا الجرح من قبل؟ لماذا؟ حتى لو كان جرحا نافذا ووصل للقلب فهذا أمر اعتيادي بالنسبة لطبيب بمستشفى عسكري؟!! عندما شرح "جمال" ظروف الإصابة، فهم الطبيب منها أن مقذوفات رصاص البندقية الآلية قد اصطدمت بجسم صلب – ربما قائم السيارة – قبل وصولها لجسم الضابط الشاب، ولهذا قلت قوة اختراقها وتشوه شكلها، فأحدثت هذا الجرح غير المنتظم. وتأكدت نظريته تلك التي شرحها لجمال مع استخراجه شاظيتي الرصاص من عضلات صدره. قام بتقطيب[19] الجرح، وتضميده جيدا، وطلب منه أن يمضي ليلة في المستشفى، قبل أن يصرح له بالخروج والعودة لكتيبته. في اليوم التالي، وخلال خروجه من المستشفى التقى بأحد زملائه، فوجد فك زميله يسقط من الدهشة لرؤيته! وحين استعلم عن الأمر عرف أنهم سجلوه في قوائم الخسائر بعدما وصلت لهم أخبار إصابته برصاصة نافذة في القلب. فقال "جمال" ممازحا:

– المرة دي مكانتش نافذة .. عموما طول ما بنحتل مواقع مكشوفة أمام مدافع العدو مسيرها تحصل!

كان الطبيب قد نصحه بالراحة لمدة يومين بعد خروجه من المستشفى، لكن الحاجة لوجوده في مقر رئاسة الكتيبة – خلال اشتباك سراياها في المعارك – كانت ملحة بما يكفي لتجعله يعود من المستشفى لمقر الرئاسة مباشرة قبل ظهر ١٣ يوليو، ليتلقى اتصالا

[19] الغرز الجراحية

من السرية الأولى يفيد بأنها في موقف حرج، حيث حاصرها كتائب الصهاينة! فقد خرج اليهود من حقول القصب في الساعات الأخيرة من الليل، ووصل الأمر لحد الاشتباك بالسونكي والسلاح الأبيض مع جنودنا في خنادقهم التي حفروها فور وصولهم، لكن الجنود صمدوا ككتل الصخر رغم نيران المرتفعات المحيطة، ورغم تقدم مشاة العدو!

برغم هذا الصمود البطولي، فقد لفتت نظر "جمال" إشارة وصلت للقيادة أول الليل من أحد ضباط السرية. لفت نظره تحديدا التعبير الذي استخدمه حين قال "اليهود هجموا خلاص .. رحنا خلاص"[20]، ومع ذلك جاءت إشارات بعدها تفيد بالصمود، وبانسحاب مشاة العدو تاركين خلفهم قتلاهم، رغم استمرار حصار السرية بالنيران! وبعد أن حرك "جمال" مجموعتين من المشاة ومجموعة من مدفعية الهاون لإمداد السرية، أشعل سيجارة وقد ملكت عليه العبارة التي استخدمها الضابط "المرعوب" كيانه بالكامل.

لماذا تشعر القوات بتلك الرهبة من هجوم عصابات اليهود؟ نعم لا شك إن تلك العصابات مدربة جيدا، وقد ضمن لها الإنجليز التفوق على الجيوش العربية في التسليح كما وكيفا، لكن المقاتل العربي أشجع من هذا!!! والمقاتل الصهيوني ليس بتلك البسالة!! ما هذا الفارق المذهل بين استهانة الجماهير التي تقرأ الصحف بالحرب وبالعدو، وبين تهويل المقاتلين هنا في قوة العدو وإمكاناته؟!!

20 قيلت العبارة بالفعل في الإشارة وفق ما جاء في المذكرات

تنبه "جمال" للعبة الحرب النفسية هنا، يأتي المقاتل لأرض فلسطين وهو يظن نفسه في نزهة عسكرية، لا بسبب الصحافة والإذاعات الحربية فحسب ولكن بسبب الإعلام العسكري الحماسي بطبيعته كذلك! ثم يفاجأ بنفسه في معركة حقيقية ويجد نفسه في مواجهة خصم شرس لا يتوقف عند حدود أخلاقيات الحرب وأعرافها!!! فيكون هذا الانهيار النفسي الذي يراه. أما العنصر الأهم فهو الإعداد الفكري للجنود! كل الجنود العرب يظنون أنفسهم هنا في موقف "جدعنة" مع قطر عربي شقيق!! ولا يعرفون أنهم يدافعون عن أقطارهم وأسرهم ذاتها، وأن فلسطين كانت فقط أرض المعركة الأولى، ونقطة البداية التي اختارها العدو.

تأزمت أوضاع السرية الأولى أكثر فاتصل "جمال" بالسرية الرابعة لتستر انسحاب الأولى بنيران كثيفة، واصطحب معه قائد جماعة المدفعية في سيارة جيب، ليرشده للموقع المطلوب قصف مواقع العدو منه لتأمين انسحاب السرية الأولى، ثم فكر في محاولة الوصول بالجيب لمواقع القوات المحاصرة عن طريق حقل الذرة، فقد عرف الطريق بعد مغامرة الأمس التي انتهت به جريحا. وبالفعل وصل "جمال" لموقع زملائه الذين تركهم قبل أقل من أربع وعشرين ساعة، وكانت سعادته غامرة بالروح المعنوية التي صار عليها الجنود، والصلابة التي اكتسبوها بعد لقاء العدو واكتشافهم أن عصابات اليهود ليست غيلانا ولا مصاصي دماء! لكن الخسائر كانت كبيرة، ولهذا قاد الانسحاب بنفسه بعدما بدأت المدفعية في ستر انسحابهم بنيران ثقيلة.

بعد الانسحاب عاد "جمال" لمقر رياسة الكتيبة وبقي به حتى فجر اليوم التالي، عندما ارتج كل شيء حوله! فقد سقطت أربعة قذائف في مركز القيادة نفسه! وفي لمح البصر وجد نفسه وسط أربعة شهداء وثلاثة مصابين، وغطت الشظايا الملوثة بالدماء مع الركام كل شيء، خرج مسرعا نحو نقطة تمركز مجموعة مدفعية الميدان، ليطلب منها ضرب مصدر القذائف الذي كان مستمرا في قصف قيادة الكتيبة حتى سكتت النيران المعادية، ووصلت إليه إشارة مع المراسلة تقول بأن اليهود يحتلون الموقع الذي انسحبت منه السرية الأولى، فطلب من المدفعية قصف الموقع بكثافة.

في اليوم التالي وصلت الكتيبة التاسعة لغيار[21] الكتيبة السادسة، وعندما كان "جمال" يسلم موقعه لزميله "رؤوف محفوظ" أبلغه الأخير بالأخبار الكئيبة للكتيبة الثالثة! فقد هجمت بشجاعة على مستعمرة "بيرون إسحق"، واحتلتها بالفعل، لكن وقع الهجوم المضاد مع أول ضوء وانقلب الأمر على الكتيبة المصرية، أجابه "جمال" قائلا:

- استقبلت إشارة استغاثة من (ك٣) مع أول ضوء، وبعت لهم بالفعل سرية للمعاونة، لكن السرية وصلت وكان الموقع بالكامل محتل بالصهاينة! إزاي ده حصل؟
- قائد (ك٣) معملش تأمين على مداخل المستعمرة! استطلاع العدو شاف كدة فعرف إن الطير سهل، القوات المصرية مكملتش ساعتين في الموقع وتم احتلاله من جديد!

[21] تعبير عسكري يعني تبادل المواقع بهدف المناورة بالقوات وتمكين الكتيبة التي اشتبكت مع العدو لمدة طويلة من إعادة ترتيب صفوفها واستعاضة خسائرها

انفعل "جمال" وهو يقول:

- إحنا في حرب مش في مناورة بالذخيرة! اللي يهمل فينا يستاهل اللي يجراله. لكن إيه ذنب الجنود دول؟ إيه ذنب ولادهم؟ وإيه ذنب فلسطين في كل الإهمال اللي حوالينا ده؟ فلسطين كدة بتضيع منا حتة حتة! ولو ضاعت كلنا ضعنا.

قال له "رؤوف" وهو يربت على كتفه مواسيا:

- لما وصلتني الأخبار مع الجنود المصابين اللي نجوا من معركة "بيرون إسحق" افتكرتك وإنت بتقول: الحرب مش ممكن تبتدي من هنا، الحرب هناك في القاهرة وبقية العواصم العربية. والحرب هناك مش هيقوم بيها لا أحزاب الباشوات ولا الإخوان يا "جمال". الإخوان وهم بيتكلموا عن مصر بينسوا إن فيها دين تاني .. بينسونا!!

أجابه "جمال" مراعيا نبرة المرارة في صوت الضابط القبطي:

- مش هيفرق مع الإخوان يا "رؤوف" لو كنت إنت قبطي وأنا مسلم! الإخوان تنظيم ديني، والنهاردة عاوزين يبقوا تنظيم ديني مسلح، والتنظيم العقائدي المسلح دايما يعتقد إنه ملك القدرة على الدنيا والآخره، وعمره ما يشوف غير نفسه! وبعد تسليحهم بذريعة حرب فلسطين .. بقوا جزء من مشكلة مصر مش جزء من الحل!
- طيب والحل يا "جمال"؟ تفتكر فيه حل؟
- أكيد فيه

قالها "جمال" متحمسا، وهو يفكر في مفاتحة "رؤوف" في أمر تنظيم الضباط الأحرار الذي بدأه مع مجموعة محدودة جدا من رفاقه في القاهرة قبل وصولهم هنا، ثم حبس لسانه – لأن الظروف المحيطة لا تسمح بمفاتحته – وتريث وهو يقول بنبرة قلقة:

- المشكلة هي؛ على ما تحل الدول العربية مشاكلها الداخلية، هيكون العدو واقف على بابها بالفعل! وهيكون بلع فلسطين وبقت دولته الجديدة شوكة في جسم العرب.
- همومك كتير يا حضرة اليوزباشي.

ابتسم "جمال" بمرارة وهو يقوم واضعا الكاب فوق رأسه وضابطا مسدسه في جنبه، ويقول:

- الهموم بتختارنا مش احنا اللي بنختارها .. خليني أقولك خبر كويس على الماشي، قرار ترقيتي طلع بالفعل من القاهرة بعد المعركة اللي فاتت والإصابة، ومنتظر وصوله علشان أعلق التاج.
- ألف مبروك يا "جمال"

قالها "رؤوف" معانقا قبل أن يغادره جمال لنقطة التمركز الجديدة للكتيبة السادسة. حيث اختارت لها القيادة معسكرا إنجليزيا مهجورا للتمركز فيه بجوار نتساليم. وكان في ذهن "جمال" أن يستغل الفرصة ليعيد تنظيم صفوف كتيبته بعد المعارك الماضية، لكن الأوامر عاجلته في المقر الجديد بإرسال سرية دعم لمعركة ناشبة في أسدود، وسرية أخرى

للمعاونة في عراق المنشية! فتبخرت خطة الوقفة التعبوية التي كان يفكر فيها. وتكررت الأوامر حتى خرجت كل سرايا الكتيبة السادسة لمساعدة كتائب أخرى، وبقي في المعسكر "جمال" وقائد الكتيبة .. قادة بلا جنود!!!

(٥)

نيران صديقة

الزمان: ٢٣ اغسطس ١٩٤٨م

المكان: عراق المنشية

قرر مجلس الأمن وقف إطلاق النار في فلسطين في مساء ١٥ يوليو، ومع ذلك استمر الصهاينة في محاولة كسب أرض جديدة قبل تفعيل وقف إطلاق النار، ووصل لجمال في رئاسة الكتيبة خبر استشهاد زميله "فيليب بقطر"، بعد نجاح "س١" في صد الهجوم الصهيوني مساء ١٦ يوليو.

مرت أيام الهدنة شديدة الرتابة بعد ذلك، حاول "جمال" الحصول على إجازة في الأسبوع الأول من أغسطس، للتغلب على رتابة أيام الهدنة، لكن الإجازة تأجلت. عن رتابة أيام الهدنة كتب "جمال" في يومياته:

"ومضت علينا أيام الهدنة الجديدة كما مضت أيام الهدنة السابقة، كأننا ما فعلنا شيئا؛ كأنما الدماء التي سالت، كأنما الجهود التي بذلت، كأنما الأرواح التي أعطيب في

سخاء، كأنما السهر الطويل المستمر، كأن أهوال المعارك في الليل والنهار، كأنها جميعا لم تكن"

في مساء ٢٨ يوليو كان "جمال" يركب التاج النحاسي على الكتافات، ويلمعه بفص ليمون وبعض الملح الخشن، فقد وصلت أوراق ترقيته رسميا من القاهرة. وأصبح "الصاغ جمال عبد الناصر حسين". ركز نظره على التاج اللامع، وتوالت برأسه الأفكار. هو كضابط بالجيش المصري يحترم هذا الشعار، لا لذاته وإنما لأنه شعار المملكة المصرية! مع ذلك كان هناك شيء في صدره دائما من هذا الشعار! ومن أسرة "محمد علي". نعم، كان "محمد علي" مؤسس مصر الحديثة بلا جدال، وكان ولده الأكبر "إبراهيم باشا"[22] قائدا عبقريا خليقا بأن يكون خلفا لأبيه لولا وفاته في حياة الأب! ولكن كل من جاء بعدهما من أولاد وأحفاد "محمد علي" و"إبراهيم" لم يكونوا على قدر المسئولية التي ورثوها بالدم، ولم يرثوا الخصال التي تؤهلهم لها.

بدأ الحكم العلوي الوراثي في مصر عمليا بعد انهيار حلم "محمد علي"! فقد تمددت الدولة الفتية التي أسسها "محمد علي باشا" في مجالها العربي الطبيعي في الشام، فأمن مصر القومي يبدأ من هناك! من فلسطين وسوريا. وانتصر القائد العبقري "إبراهيم باشا" على الجيش التركي في عدة معارك، وفر أمامه الجيش التركي حتى وصل إلى "قونية" في قلب

[22] يرى بعض المؤرخين أن "إبراهيم باشا" كان ابن زوجة "محمد علي باشا" من زيجة سابقة، ولكن هذا الرأي ليس مدعوما بما يكفي من القرائن

تركيا. شتت "إبراهيم" الجيش التركي وأسر كبير الوزراء (الصدر الأعظم)! فما كان من السلطان إلا أن استعان بأوروبا، فأرسلت له روسيا أسطولها لحماية الآستانة، وبدأ الأوروبيون في الضغط على "محمد علي"، حتى تصالح مع السلطان على ضم الشام والحجاز وكريت لمصر في معاهدة كوتاهية. لكن السلطان نقض العهد وحاول مواجهة "إبراهيم باشا" عسكريا من جديد، فمني بهزيمة فادحة جعلت الطريق مفتوحا للآستانة من جديد. وهنا قررت بريطانيا وبروسيا والنمسا وروسيا الوقوف أمام طموح "محمد علي"، فهم يريدون للرجل المريض أن يبقى مريضا[23]! ولا تحل محله دولة قوية ذات حاكم فذ! عقدوا مؤتمر لندن للتفاهم بينهم، وأنذروا "محمد علي" بالانسحاب من الشام والأناضول مقابل ولاية مصر وعكا وراثية في أسرته، وعندما تأخر في القبول قلصوا العرض ليصبح ولاية مصر فقط بدون عكا! واضطر الباشا للقبول. وتنازل "محمد علي" عن ولاية الشام مقابل حكم مصر وراثيا في أسرته!! والسؤال هنا؛ لماذا انتفضت أوروبا لفكرة توحيد مصر والشام تحت لواء قوي واحد؟ تلك الزاوية على ساحل البحر المتوسط لم يكن مسموحا لها بالتوحد، لأن وحدتها تخلخل ميزان القوى في العالم! وتوالى الولاة من أسرة "محمد علي"، حتى صارت مصر سلطنة، فمملكة منذ إعلان الاستقلال الصوري عن المملكة المتحدة في ١٩٢٢م!

23 الرجل المريض هو الاسم الذي أطلقه الغرب على الخلافة العثمانية في زمن ضعفها وتحللها

الملك "فاروق الأول" هو الحفيد الثاني لنابليون الشرق "إبراهيم باشا"، ولو كان كجده لكان "الصاغ جمال عبد الناصر" سعيدا بوضع شارة ملكه فوق كتفه! لكنه أبدا لا ينتمي لهذا الجد العظيم "إبراهيم باشا". كان هذا القائد ألباني الأصول مصريا بالقلب، عروبيا بالروح! حتى أنه أعلن لجنوده خلال حملته الأولى على الشام أنهم يقومون بمهمة توحيد العرب تحت لواء مصر، وتحرير الأرض العربية من الطغيان التركي العثماني! فأي عبقري سابق لزمنه كان "إبراهيم"؟!! كان قوميا قبل أن تظهر الأفكار القومية العربية بسنين طوال! ورغم أصوله الألبانية! لأن القومية في قيادة مصر هي رؤية استراتيجية، وليست نعرة قومية!

انتبه "جمال" من أفكاره على صوت انفجار ارتطام شديد رغم الهدنة، فتوقع أن يكون الصهاينة خرقوها كعادتهم، وخرج من خيمته يستعلم، فعرف أن طائرة "الجنزوري" قد سقطت بعد أن اعترضتها طائرات العدو.

في الليل، زاره "ثروت عكاشة" و"وحيد حلمي"، وعرف منهما أن اللواء "المواوي" سوف يمر على الخط الدفاعي بعد يومين. فعلق ساخرا:

– والله؟ زيارة ميمونة لجنابه بعد وقف إطلاق النار! دلوقت بيطمن على الدفاعات؟ صحيح .. قادة الجبهات الهادئة.

بعد انتهاء مرور "المواوي"، عادت الأيام رتيبة، والليالي طويلة من جديد[24]، حتى كان يوم ٢٣ أغسطس!! وجاءه الخبر الصاعق .. فقد استشهد البطل الأسطوري "أحمد عبد العزيز"، أول المبادرين من الجيش المصري لهذه المعركة، وأول من أدرك أنها معركة العرب المحورية، مات البطل .. وبنيران صديقة!! كان "ثروت عكاشة" هو من حمل له الخبر الكئيب.

- إزاي يا ثروت؟!! إزاي ده حصل؟

هكذا سأله "جمال" منفعلا، فأجاب "ثروت" بوجه يعلوه حزن عميق:

- "أحمد عبدالعزيز" و"صلاح سالم" و"الورداني" كانوا راجعين بالعربية بعد مؤتمر العرب واليهود في القدس، اللي قابلوا فيه "موشي ديان"، ولما قربوا من عراق المنشية الساعة (٠٠:٢٠)[25]فتح عليهم النيران موقع من المواقع المصرية ، واستشهد "أحمد عبد العزيز" والباقيين بخير.
- مش غلطة اللي فتح النار طبعا! اليهود كل يوم بيعملوا خرق لخطوط الهدنة في عراق المنشية! دي غلطة ظابط الإشارة اللي مبلغش بمرورهم قبلها بوقت كافي.
- بيقولوا فيه تحقيق.

---

24 سجلت مذكراته شكواه من الملل والرتابة عدة مرات خلال فترة الهدنة

25 التعبير عن الوقت في العسكرية يكون بالساعات والدقائق هذا النمط، وبترقيم الأربع وعشرين ساعة بحيث لا يحتاج للتمييز بصباح ومساء، وهذا تكون الساعة الثامنة مساء

في أي من وقائع الإهمال سيتم التحقيق؟ ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، فالجيوش العربية تفتقد للحد الأدنى من الدربة والتأهيل للمعركة، فضلا عن التنسيق بينها بقيادة أركان مشتركة. في تلك الليلة جلس "جمال" محزونا. لم يكن البطل "أحمد عبد العزيز" منتميا لتنظيم الضباط الأحرار، لكنه كان أيقونة محورية لحرب فلسطين، فقد كان في طليعة الضباط المصريين الذين اتخذوا قرار الحرب قبل أن تتخذه الدول العربية نفسها، وتقدموا لخوض غمارها قبل أن تتقدم الجيوش! فاستقال من رتبته العسكرية كقائمقام، والتحق بفلسطين لتدريب المتطوعين للقتال. لهذا كتب "جمال" بحروف تقطر ألما في يومياته:

"تألمت جدا!! فإن أحمد عبدالعزيز كان يحب أبناءه .. وكان في عز مجده الذي لم يجاز عليه ولم يره الشعب ولم يستقبله .. مات أحمد عبدالعزيز وكله أمل في الحياة"[26]

[26] هذا ما جاء في المذكرات تعليقا على شهادة البطل أحمد عبد العزيز

البطل أحمد عبد العزيز (الثاني من اليمين) مع موشي ديان خلال مفاوضات مؤتمر القدس قبيل استشهادة مباشرة

(٦)

اغتيال برنادوت

الزمان: ١٧ سبتمبر ١٩٤٨م

المكان: القدس؛ القطاع الغربي

رغم قبول العرب واليهود بمفاوضات "رودس" التي كان مقررا لها أن تنعقد في نهايات ١٩٤٨م باقتراح من وسيط الأمم المتحدة الكونت السويدي "فولك برنادوت"، غير أن تلك المفاوضات تأجلت إلى السابع من يناير ١٩٤٩م، بعد اغتيال الكونت "برنادوت" بالرصاص في القدس الغربية.

كان "جمال" يحزم شدة الميدان الخاصة به، استعدادا للإجازة التي تأجلت أكثر من مرة، وحان وقتها أخيرا خلال الهدنة السارية. بينما كان حديث الضباط وصف الضباط حول خبر الساعة وهو اغتيال "برنادوت" في القدس. وعندما خرج "جمال" من غرفته ليدخن سيجارة في هواء الخريف البارد، وجد الجاويش "عبد الفتاح" يشرب شايا تحت شجرة البرتقال. حاول "عبد الفتاح" الوقوف ليؤدي التحية ولكن "جمال" ربت على كتفه وجلس بجواره على المصطبة الأسمنتية. بعد تبادل عبارات التحية، سأله "عبد الفتاح":

– الخلق كلها بتتحدث عن قتل الخواجة بتاع الأمم المتحدة. هو اليهود قتلوه ليه يا افندي؟ هما بيقتلوا الخواجات كمان مش العرب بس؟

- ممكن يقتلوا الخواجات يا "عبد الفتاح"، لو حد فيهم حاول يعامل العرب بشيء من العدل.
- يعني الخواجة ده كان راجل كويس يا أفندي؟
- مش للدرجة دي، لكن في الفترة الأخيرة قالهم مينفعش تاخدوا كل حاجة، سيبوا للعرب أي حاجة علشان الحرب تقف.

كان "برنادوت" – رغم انحيازه لليهود في اختيارات توقيت الهدنة لخدمة مصالحهم – قد تبنى طرحا جديدا يمثل الحد الأدنى الذي يساعد – في رأيه – على قبول العرب بقرار التقسيم، لكن طرحه لم يكن على هوى اليهود. فقد تضمن رسم حدود دولية نهائية لدولة إسرائيل على أساس خطوط التقسيم، بعد تعديلها بترك النقب الجنوبي للفلسطينيين حتى يكون هناك اتصال بين الأراضي العربية في آسيا وأفريقيا، مقابل منح الإسرائيليين منطقة الجليل. كما اشتمل طرحه على عودة النازحين الفلسطينيين الذين تركوا قراهم بسبب الحرب، والحد من هجرة اليهود المستمرة لفلسطين بوضع ضوابط لها، وكذلك وضع القدس ضمن الدولة الفلسطينية. لهذا اختار اليهود قتله في القدس، بالرغم من مكانته كأحد أفراد الأسرة المالكة السويدية.

بعد هذا الحوار بيومين كان قائد ميليشيا آرجون "مناحم بيجن"، مع قائد ميليشيا شتيرن "إسحق شامير"، يجلسان على مائدة مستديرة مع قائد العمليات اليهودي في الحرب الكولونيل "إيجال آلون". بدأ الكولونيل حديثه قائلا:

- المفروض أن هناك قيادة عمليات هنا، فكيف تمت عملية تصفية الكونت "برنادوت" بدون معرفتي؟
- كانت الفرصة سانحة ولم يكن هناك وقت للمداولات المطولة، لهذا اتفقت أنا و"شامير" على التنفيذ، وكلفنا قائد وحدة القدس "زتلر" بالتنفيذ.

هكذا أجابه "بيجن" ساخطا، فقد كان يتوقع الشكر على هذه المبادرة، ثم استأنف قائلا:

- كولونيل .. لقد تفوقنا على العرب في هذه الحرب لأننا لم نكن ننتظر مثلهم، ولم نكن نجيب على المهمات العاجلة بمثل العبارة التي اشتهرت بين صفوفهم "ماكو أوامر"! المبادرة السريعة ومرونة التشكيلات هي التي صنعت نصرنا أمام جيوش الدول العربية مجتمعة.
- بيجن .. أنا لست معترضا على العملية قطعا! برنادوت يستحق الموت ألف مرة، فقد قدم طرحا لم يجرؤ أحد من قبله على تقديمه، طرحه كان كفيلا بتقويض أحلام إسرائيل لتصبح محدودة في بقعة يهودية وسط محيط عربي من كل جانب! اعتراضي بالأساس على أسلوب التنفيذ المكشوف جدا! كان بوسعنا أن نخطط بشكل أكثر دقة نتجنب به الحرج أمام المجتمع الدولي، وننسب الجريمة للعدو العربي.
- هه

هكذا اصطنع "شامير" ضحكة ساخرة، وهو يقوم من مقعده ليواجه الكولونيل وينحني فوق الطاولة قائلا:

- لقد حررنا هذا الوطن بإغراء المجتمع الدولي تارة، وبالإعراض عنه تارة! إذا اعترضت إسرائيل مشكلة وجودية مثل مشكلتها مع الإسكندنافي المنمق "برنادوت"، فليذهب المجتمع الدولي للجحيم يا سيدي.
- صحيح جدا كولونيل. تحالفنا مع المجتمع الدولي من أجل إسرائيل، ومن أجلها يمكننا أن نثير حنقه، لا يهم على الإطلاق.

هكذا قال "بيجن" مدعما كلام "شامير"، فعلق "آلون":

- ولكننا من أجل هذا المجتمع الدولي اضطررنا لإعلان شتيرن جماعة إرهابية واعتقلنا العشرات من عناصرها المسلحة!

أجابه "شامير" بلهجته الساخرة:

- أنا قائد شتيرن يا كولونيل وأنا أجلس أمامك الآن! وفوق هذا فلدي وعد قاطع من وزير الداخلية بإطلاق سراح رجالي خلال أسابيع قليلة. أسابيع في الحبس مقابل رأس "برنادوت" .. أليست صفقة جيدة يا صاحبي؟
- لا بأس يا أصحاب الرؤوس الصلبة. الآن يدور حديث في أروقة الأمم المتحدة حول من سيخلف "برنادوت"، رجالنا هناك يقولون أن المرشح لخلافته هو "رالف بانش". لنرى كيف سيتصرف الوسيط الجديد.

هكذا قال "آلون" وقد يئس من إقناعهما بمنطقه، فأجابه "بيجن":

- سيكون طرحه مختلفا. لابد أنه تعلم من رأس "برنادوت" الطائر. لهذا نتوقع تكريما كبيرا على ما أنجزناه وليس تقريعا يا كولونيل.

وبالفعل كان "بانش" هو الوسيط الجديد، وقد جاء بأطروحة جديدة تماما؛ السلام مقابل السلام .. ولا حديث عن الأرض أو عودة النازحين الفلسطينيين (اللاجئين فيما بعد)، ولا عن عروبة القدس بطبيعة الحال!

الكونت السويدي فولك برنادوت، وسيط الأمم المتحدة

الأول في حرب فلسطين، والذي اغتاله اليهود

منشور القبض على قيادات عصابة شتيرن، يتوسطهم إسحق شامير (رئيس وزراء إسرائيل السابع فيما بعد)، وهي المسرحية التي صنعتها إسرائيل حول مقاومة الإرهاب بعد اغتيال برنادوت وأفرجت عن المتهمين بعد أسبوعين من الحكم الوهمي بسجنهم ظهر الإرهاب اليهودي متزامنا مع ظهور جماعات العنف الإسلامية، ولم يكن هذا مصادفة، بل ترتيب محكم. فقد صار كل منهما مبررا لوجود الآخر!

بيجن بعد الحرب، حين خلع زي عصابات آرجون ليصبح سياسيا بارزا في إسرائيل

(٧)

وسط الألغام

الزمان: ٢١ سبتمبر ١٩٤٨م

المكان: طريق غزة – بير سبع

عاد الصاغ "جمال عبد الناصر" من إجازته القصيرة التي حصل عليها، وكانت سعادته بها كبيرة، فقد افتقد "تحية" والصغيرة "هدى"، وكان مله من رتابة حياة المعسكر خلال فترة الهدنة قد وصل لأقصاه، حتى أنه قال لزوجته:

- اكتشفت خلال الهدنة إن النيران هي مؤنس وحشة المقاتل. افتقدت صوت ضرب النار.
- حرام عليك يا "جمال" .. ده أنا ما صدقت سمعت خبر الهدنة، من يوم ما سافرت ولحد إعلان الهدنة مكنتش بنام تقريبا.

أمسك "جمال" يدها بحنان بالغ وهو يجذبها لتجلس إلى جواره ويقول:

- عاوزك تجمدي شوية يا "تحية"، لازم تتعودي على كدة. جوزك ظابط في جيش مصر، مش بس مدرس في كلية الإدارة[27]، واحنا في حرب.

[27] كان عبد الناصر قبيل الحرب مدرسا في كلية الإدارة، ودارسا في كلية الأركان، وسوف يصبح بعدها مدرسا في كلية أركان الحرب

- وإمتى هتخلص الحرب؟ "هدى" بتسألني دايما السؤال ده؟

شخص "جمال" ببصره نحو النافذة، حيث كان قرص الشمس يحبو نحو الغروب في تلك الأمسية الخريفية. أشعل سيجارة، ونفث دخانها مع الكلمات، وبصوت كأنه يحدث به نفسه أكثر مما يحدثها:

- السؤال مش إمتى .. السؤال هتخلص على إيه؟

ثم استأنف وقد حول عينيه لينظر لزوجته في عينيها:

- المعركة في كل الأحوال هتخلص .. لكن حربنا مع الصهاينة واللي ورا الصهاينة طويلة قوي يا تحية.
- ربنا ينصرك ويعينك.

هكذا كان حديثها معه ينتهي دائما، بذلك الدعاء "ربنا ينصرك"، كأن الله العارف بالقدر الذي أعده لجمال، وهبه تلك الزوجة الداعية له دائما بالنصر والسداد. وكأن لطف الله شاء أن يمنحه بتحية وحنانها الدافق عوضا عن حنان والدته الذي حرم منه مبكرا جدا.

زار "جمال" عبد الحكيم في المستشفى، فقد عاد للقاهرة نتيجة لمضاعفات الشظية التي أصابت يده في فلسطين، نتيجة لتلوث الجرح. وانتهت أيام الإجازة المعدودة وعاد

"جمال" للجبهة في مطلع سبتمبر، ليجد تكليفا ينتظره باستطلاع موقع "عراق الخراب" في اليوم التالي. فخرج للاستطلاع مع "عبد الفتاح فؤاد" و"عبد العزيز كامل"، وفي رحلة العودة طلب "كامل" من سائق الهامر أن يسلك طريق غزة–بير سبع، فاعترض "جمال" لعلمة من الخرائط أن قوات المقاومة الشعبية التي سبقت الجيوش النظامية قد زرعت بالطريق ألغاما، لعجزها عن الدفاع عنه بإمكاناتها القليلة، لكن "كامل" قال له أنه يعرف الطريق جيدا.

لم تمر ساعة حتى كان "عبد الفتاح" يصرخ بالسائق فجأة: "اقف". ضرب السابق مكابح السيارة رياعية الدفع بقدمه بقوة فأصدرت العجلات صوتا عاليا وهي تحتك بصخور المدق. نظر له "جمال" و"عبد العزيز" بدهشة، فأشار بيده لحطام سيارات على بعد مائتي متر من موقعهم، وهو يقول:

- عربيات اليهود دي مش مضروبة بمدفعية، باين من شكل الحطام إن اتجاه الانفجار من تحت العربية. احنا في منطقة ألغام مضادة للمركبات فعلا يا "جمال".. إيه العمل دلوقت يا سي "كامل"[28]؟
- أنا لسة معدي ع الطريق ده من يومين ومكانش فيه الحطام ده. إنت متأكد إننا على طريق غزة–بير سبع يا ابني؟

هكذا سأل "عبد العزيز كامل" السائق، فعاجله "جمال" قائلا:

[28] واقعة الدخول في حقل ألغام ثم الخروج منه حقيقية كما جاء بالمذكرات

- هو الطريق مظبوط.

انفجر "عبد الفتاح" قائلا:

- الزقها في العسكري الغلبان، ما قالك "عبد الناصر" إن الطريق متلغم، ومنطقة الألغام ظاهرة في الخرايط كمان، خرجنا بقى يا أبو العريف!
- يعني هو أنا مش راكب معاكم يا سي ...

قاطعهما "جمال" ليوقف المعركة التي كادت تنشب بينهما وهو يقول:

- مش وقته يا جماعة .. خلونا نركز ونشوف هنعمل إيه.
- معايا ذخيرة كاشفة، ننتظر نزول الليل ونضربها علشان القوات المصرية تنتبه لمكاننا.

هكذا اقترح "كامل" مدفوعا بشعوره بالذنب نحو زملائه، فنظر له "جمال" متعجبا من الاقتراح!! وهو يجيبه قائلا:

- أو الصهاينة يوصلوا لنا الأول!

ترجلوا محاذرين من الابتعاد عن السيارة، مرت نصف ساعة أحرقوا خلالها لفافات تبغ عديدة والكل يفكر في مخرج من هذه الورطة. وكان رأي "عبد الفتاح" ألا يتحركوا، حتى يصل إليهم من يعرف خريطة الألغام الأرضية ويخرجهم، لكن زميليه اعترضا بأن الطريق غير مأهول بدرجة كبيرة. وأخيرا تكلم "جمال" قائلا:

- اللي بيلغم طريق بيسيب أقصى اليمين أو أقصى اليسار آمن لمرور المركبات الصديقة.
- ده بافتراض إن اللي زرع يعرف القاعدة دي، وحتى لو يعرف؛ هنعرف منين هو ساب اليمين ولا الشمال؟

بدأ الجدل من جديد، حول المخاطرة بالانتظار أو المجازفة بالعبور من طريق يختاروه، وأخيرا قفز "جمال" للمقعد المجاور للسائق وهو يقول:

- أنا هتحرك، والعربية هتتحرك بأمري لأني الأعلى رتبة. اللي عاوز يفضل هنا هو حر.

تبادل زميلاه النظرات، قبل أن يركبا في المقاعد الخلفية، ويطلب "جمال" من السائق أن يسلك أقصى اليسار، بناء على خريطة كروكي رسمها، فصار الغالب لديه أن اليسار هو الطريق الصحيح.

تحركت الهامر وكأنها تزحف فوق الطريق، وكانت رعدة تنتاب جسد السائق كلما اقترب من منطقة الحطام. لاحظ "جمال" رعدته والعرق الذي يتفصد من جبينه، فطلب منه الوقوف فورا، واتخذ هو موقع القيادة. كانت علامات التوتر تبدو على وجه "جمال" خلال فترة الجدال، لكنها زالت تماما في اللحظة التي توصل فيها للقرار. داس على بدال الوقود بقوة لتعبر السيارة منطقة الحطام وتبتعد عنها بسرعة، فتنفس الجميع الصعداء.

وقفز "كامل" على كتفي "جمال" من خلف يقبل وجنته وهو يقول:

- عفارم يا "جمال" .. عفارم. عرفتها إزاي دي؟

ابتسم "جمال" وهو يقول:

- أبدا .. افترضت إن اللي زرع الألغام ذكي كفاية، وطلع ذكي.
- إزاي؟
- لو اليهود كانوا في موقعنا، كانوا هيفكروا إن اليمين – للقادم من غزة- هو الاختيار الصح لأن المسلمين بيختاروا دايما اليمين دليل على السلامة والاختيار الصحيح. فافترضت إن اللي زرع لازم يكون ذكي ويعمل العكس، وطلع اليسار هو سكة السلامة.

"اليسار هو سكة السلامة" .. هل كان "جمال" يعرف ما لهذا الاختيار من أثر في حياته مستقبلاً؟

السيدة تحية كاظم

(٨)

خربة الجحز

الزمان: ٢٩ سبتمبر ١٩٤٨م

المكان: خربة الجحز، بالقرب من بيت جبرين

صدرت الأوامر للكتيبة السادسة بالتحرك واتخاذ موقع جديد على الطريق بين "عراق المنشية" و"بيت جبرين"، وتحرك "جمال" للاستطلاع ثم تبعته سرايا الكتيبة. وقام قائد الكتيبة بإجازة بعد نهاية الهدنة في ٢٤ سبتمبر، فتسلم "عبد الناصر" قيادة الكتيبة بالإنابة. وفي ليلة ٢٨ وصلته إشارة من الحاكم الإداري المصري لبيت جبرين، تقول بأن العدو قد احتل "خربة الجحز"، وأن الحاكم الإداري وبعض المتطوعين يناوشون العدو، بغية تأخير بنائه للتحصينات. رفع "جمال" الإشارة لقيادة اللواء الرابع (الذي تتبعه الكتيبة السادسة)، وجاءه الأمر بالتحرك والتعامل مع العدو مع آخر ضوء من اليوم التالي. جمع "عبد الناصر" قادة الكتيبة على خريطة الرمال، وبدأ في سرد الخطة التي وضعها:

- الهدف هو تحرير خربة الجحز، فيه حوالي ثلاثين من عصابة شتيرن احتلوها، والمسلحين العرب في مناوشات معاهم من امبارح. هنتحرك بخمس حمالات "بيرن"[29]. شاويش عبد الفتاح.

---

29 ناقلات الجنود بيرن الإنجليزية

- تمام يا أفندم.
- البيرن بقيادتك. هتتحرك معانا فصيلتين المشاة بقيادة الملازم أول "الشاهد" و"حسن التهامي"، وهتتحرك معانا جماعة الهاون ٢.٤ بوصة وجماعة "فكرز"[30] بقيادة اليوزباشي "الحديدي" .. يوزباشي "يكن".
- تمام يا أفندم.
- عربيتين الهامر هيتحركوا بقيادتك، وأنا طالع معاك في واحدة منهم.
- الهجوم مع آخر ضوء يا افندم؟

هز "جمال" رأسه نافيا وهو يقول:

- لأ .. مش هنتظر لآخر ضوء. اليهود عارفين إننا جيوش نظامية وعلشان كدة بيكونوا جاهزين قوي مع أول وآخر ضوء. شمس العصر هيكون اتجاهها في صالحنا. ساعة الصفر سعت ١٦:٠٠ بالظبط

تابع "جمال" انتباه ضباطه وصف ضباطه للتفاصيل، قبل أن يركز نظره من جديد على خريطة الرمال أمامه ويقول مفصلا:

- من الساعة صفر للساعة صفر زائد عشرة نيران الهاون ونيران الفكرز. عشر دقايق متصلة بنيران كثيفة. وبعدين الحمالات هتتحرك من اليمين نحو الخربة في أعلى التلة. وإنت يا "شاهد" مع المشاة من الجانب الأيسر. فيه أي أسئلة؟

30 بنادق فكرز الآلية الثقيلة إنجليزية الصنع

ناقش بعض التفاصيل مع قادة السرايا، ثم تركهم للاستعداد، وفي الثانية بعد ظهر اليوم التالي تحركت القوات من نقطة التجمع، وكان "جمال" في واحدة من سيارتي الهامر، بعد أن أرسل إشارة لقائد قوات المتطوعين العربية بانسحاب عناصره خارج الجحز قبل قصفها.

أشرفت القوات على تلة الجحز، وكان "جمال" يراقب ساعته حتى أشارت عقاربها لساعة الصفر، فبدأت نيران القذائف ومدافع الماكينة تصم الآذان، ومرت الدقائق العشرة سريعا مع الترقب، ومرت ثلاثون ثانية ولم تتحرك قوات المشاة ولا الحمالات. حاول "جمال" الاتصال بالمشاة لكن الإشارة كانت سلبية تنم عن انقطاع الاتصال بهم، وتلقى إشارة من قائد الحمالات:

- هناك خور يحيط التلة ويمنع تقدم الحمالات. انتهى.
- استمر في البحث عن منفذ للبلدة بالالتفاف حول الخور، لا تلتزم بالخطة في مكان الاقتحام واقتحم من أي موقع ممكن. انتهى.

أشعل سيجارة وهو قلق لعدم تقدم قوات المشاة، ومرت ساعة ونصف من القتال قبل أن يتلقى التمام من قائد الحمالات الشاويش "عبد الفتاح"، تفيد بنجاحها في النفاذ للبلدة والتعامل مع العناصر المعادية فيها. تقدم "جمال" بسيارة الهامر نحو البلدة، وتم التأكد من تحريرها من عناصر الصهاينة، قبل أن يطلب "جمال" حضور قائمقام الخليل

"محمد عبد الهادي" ليسلمه البلدة المحررة، فقد كانت الأوامر تقضي بتسليم البلدة للمتطوعين والعودة لنقطة التمركز فور تحريرها.

كان المشاة قد دخلوا المعركة بعد أكثر من نصف ساعة من بدايتها، فاستدعى "جمال" قائدي فصيلتي المشاة "صلاح الشاهد"، و"حسن التهامي"، وسألهما عن سبب عدم التنفيذ وفقا للخطة، فعرف منهما أن جماعة من عناصر العدو كانت كامنة عند المدخل الأيمن للقرية بمدافع ماكينة لترصد الحمالات، فتعاملوا معها وأمنوا اليمين.

كانت المشاعر رائعة في البلدة المحررة، تعانق الجنود مع المتطوعين العرب بفرحة غامرة، وكانت معنويات جنود الحمالات في السماء لأنهم اشتبكوا مع اليهود في معركة مفتوحة وأحرزوا نصرا واضحا. وعاد "جمال" بالقوة كاملة لنقطة التجمع بدون خسائر في الأرواح، وبعد أن حمَّلوا العربات بالأسلحة التي غنموها من العدو، بعد أن وزعوا الأغذية والمهمات على المتطوعين العرب.

في نقطة التجمع وقف "جمال" أمام الكتيبة كاملة في طابور تمام العودة، وبعد التمام شكر همم الرجال العالية، ثم قال وهو يربت على ذراع الجاويش "عبد الفتاح":

- النهاردة كان يومك إنت ورجالتك يا وحش. عفارم يا "عبد الفتاح".

ثم اتجه إلى حيث يقف اليوزباشي "الحديدي" وجماعة الفيكرز، ورفع خوذة من خوذات الصهاينة، وفي مقدمتها ثقوب "دفعة" من رصاصات الماكينة، وقال:

- مجموعة الفيكرز كمان النهاردة كانوا عتاولة يا حضرة اليوزباشي. جبتوهم بالفيكرز على بعد ٢٠٠٠ متر. الإنجليز اللي عملوه ميعرفوش يضربوا بيه من المسافة دي. الهاون كمان مهد الأرض للاقتحام بامتياز وتفوق على مدافع "لافاييت" المعادية، رغم فارق الإمكانات. والمشاة اللي اتأخروا علشان يحموا جنبنا كمان أحسنوا التعامل مع الموقف. عفارم يا رجالة[31].

سلم "جمال" الخوذة التي التقطها من أرض المعركة لليوزباشي "الحديدي" ثم تبادل معه التحية العسكرية، قبل أن يتجه لخيمته مبتهجا.

في المساء زاره "عبد الحكيم"، وعانقه مهنئا وهو يقول:

- مبروك يا "جمال". أخبار اللي عملتوه النهاردة في خربة الحجز وصلت لنا.
- الله يبارك فيك يا "حكيم". كان يوم رائع فعلا! بس عارف الدرس اللي طلعت بيه النهاردة إيه؟

لم ينتظر إجابة، واستمر قائلا:

31 خطة المعركة ووقائعها ونتيجتها حقيقية

- النصر على الصهاينة مش محتاج معجزات. طبقنا العلم اللي اتعلمناه، ونفذنا الخطة بانضباط، وبحسن تصرف من القادة في نفس الوقت. وانتصرنا!! لو وفرنا للجندي العربي ظروف النصر هينتصر يا "حكيم" .. مؤكد هينتصر.

مدفع الهاون (مورتار) المستخدم في الحرب العالمية الثانية وحرب فلسطين

مدفع الفيكرز إنجليزي الصنع المستخدم في حرب فلسطين

(٩)

إحباط

الزمان: ٣ أكتوبر

المكان: نقطة التجمع، بيت جبرين

- ده اسمه تحريج مش حرب.

ألقى "جمال" السماعة من يده وهو ينتفض من الغضب. دخل اليوزباشي "لطفي واكد" على الصوت المرتفع، واتجه لجمال يسأله عن سبب هذه الثورة التي ترتسم معالمها على عضلات وجهه وعنقه التي كانت تتقلص بعنف، وجبينه المتفصد عرقا.

- الصهاينة احتلوا الجحز تاني.
- إزاي؟

أخبره "جمال" وهو ينتفض غضبا وينفث دخان سيجارته مع الكلمات، بأن قائمقام الخليل ترك فيها بعد التحرير بضعة أفراد من المتطوعين العرب، ولم يكن عددهم كافيا لحمايتها، رغم موقعها المرتفع والمشرف على معسكر الصهاينة. فتمكن العدو من دخولها وقتلوا المتطوعين، ويحاولون الآن وضع الأسلاك والتحصينات. وهو يطلب أمرا بالهجوم منذ ساعتين ولا مجيب. سأله "واكد":

- قائد الكتيبة فين؟
- ملخوم وخايف ياخد قرار، واللواء "المواوي" في بيت لحم ومش عارفين نوصله.

صمت "لطفي واكد" وقد أصابه من الغضب والإحباط ما أصاب "جمال"! هاهي النقطة الهامة التي حرروها منذ يومين تحتل من جديد. قطع "جمال" الصمت بقوله:

- فيه كتايب من اللواء الرابع كانت لها سرايا قريبة، بلغناها، قالوا دي مسئولية لواء المتطوعين. ولواء المتطوعين بلغناه فقال دي مسئوليتنا احنا (يقصد الكتيبة السادسة)، والمسئولين عننا مش عايزين ياخدوا قرار[32]. بنتعازم في الحرب يا "لطفي". تبقى حرب ولا تهريج؟
- إنت قلت الكلام اللي أنا سمعته ده وإنت بترد على إشارة تليفونية يا "جمال"؟

قالها "واكد" مشفقا من نتيجة ذلك الغضب، فأجابه "جمال" ملوحا بيده في الهواء:

- أيوة قلت .. واللي يحصل يحصل.

أشعل سيجارة ثانية من الأولى وهو يضيف موضحا ما كان بوسعه القيام به حتى الآن:

[32] هكذا جاءت الوقائع في المذكرات، بهذه التفاصيل

- طلبت من المتطوعين يناوشوا اليهود ويمنعوهم من إقامة دفاعات أو أسلاك، ولحد دلوقت المتطوعين صامدين. لكن لحد إمتى؟ بعت لهم آخر صندوقين ذخيرة خفيفة كانوا هنا، ودلوقت مستني الإمداد والأوامر.

دخل المراسلة وأدى التحية ثم قال:

- نعمة الله بك وفؤاد بك ثابت وصلوا وطالبين سعادتك يا افندم.

قام "جمال" متلهفا والتقط مسدسه من فوق المكتب وثبته في قرابه وهو يتجه مسرعا مع المراسلة، آملا أن يكون القرار قد اتخذ. قابله "نعمة الله" بفتور، فقد وصل تعليق "جمال" على الإشارة الأخيرة لمسمعه. أخبره "نعمة الله" أن قرار الهجوم قد اتخذه اللواء "المواوي" فور تمكنهم من الاتصال به، لكنهم مازالوا في انتظار إمدادات الذخيرة، كما أخبره بأن الهجوم سيكون مشتركا مع الكتيبة الأولى التي أصبح "نعمة الله" يقودها، ولن يكون الهجوم قبل الغد.

قبض "جمال" كفه بعنف كاد يدميه وهو يكظم غيظه. وأدى التحية وهو يهم بالانصراف، قبل أن يستوقفه "نعمة الله" مناديا:

- صاغ "جمال"
- أفندم.
- الصاغ "زكريا محيي الدين" من الكتيبة الأولى هيكون قائد العملية.

فهم من فوره أن هذا هو عقاب "نعمة الله" أو ربما "المواوي" نفسه على تعليقه في الإشارة الرسمية. لكن هذا لم يكن ما يهمه الآن، الأهم هو الخروج فور وصول الذخيرة، وقبل أن تنفذ ذخيرة المتطوعين فيتمكن العدو من بناء دفاعاته، وتصبح مهمتهم في تحرير التلة المرتفعة أصعب.

في اليوم التالي خرج "جمال" تحت قيادة صديقه "زكريا" وبقوات مشتركة من الكتيبتين الأولى والسادسة! يفهم قرار تكديره! ولا يضايقه أبدا أن يكون تحت قيادة صديقه، وأحد الضباط الأحرار! بالطبع كانت حقيقة علاقته بزكريا خافية على "نعمة الله"، ولهذا ظن أنه بهذا يضايقه. لكن "جمال" لم يفهم أبدا لماذا تكون القوات خليطا بين كتيبتين، التفاهم بين القوات سيكون أقل بكثير، ومعنويات كتيبته في السماء بعد تحريرها نفس الموقع منذ أربعة أيام، وصارت خبيرة بأرض المعركة! على أي أساس تم هذا التشكيل الجديد؟

وصلوا للخليل، فوجدوا في انتظارهم أمرا بتأجيل الهجوم من الساعة ٠٠:١٦ (كما خطط "جمال" في الهجوم السابق) إلى أول ضوء من اليوم التالي. كان صديقه "كمال بشارة" بجواره، فعلق "جمال" قائلا:

- نفس الخيال العقيم!! فرصة ليلة كاملة للعدو لإقامة تحصينات وأسلاك! وهجوم مع أول ضوء، في ميعاد تقليدي هيكون العدو فيه على أتم استعداد.

- الظاهر "نعمة الله" معجبوش انتصارك في الجحز يا "عبد ناصر"!! إصرار غريب على تغيير التشكيل والميعاد وكل التفاصيل! لو لاحظت غيروا مواقع المشاة والحمالات في خطة الهجوم كمان.

قالها "كمال" وهو يبتسم بمرارة!

افترش "جمال" مع "زكريا محيي الدين" بطانية ليرقدوا عليها معا ويتدثروا بالثانية. وفي تمام الثالثة صباحا كانت نوبة الصحيان. واستغرق الأمر دقائق حتى انتظم طابور القوات، وبدأ التحرك نحو خربة الجحز.

كان الهجوم مخططا في تمام سعت ٠٠:٠٥ ، ولكنه تأخر للسابعة صباحا لأسباب تتعلق بتوافر ذخيرة الهاون، وكان تأخر الموعد مشكلة! حيث أصبح اتجاه شمس الصباح في عيون المهاجمين. بدأ الهجوم بمدفعية الهاون ونيران الفكرز، لكن جماعة مشاة وحمالات الكتيبة الأولى فشلت في اقتحام البلدة، ورد عليها العدو بنيران عنيفة. اقترح "جمال" على "زكريا" أن يستدعوا الشاويش "عبد الفتاح" لكنه رفض أول الأمر، حرصا على معنويات حمالات كتيبته. كرر "جمال" اقتراحه بعد فشل محاولة الاقتحام الثانية في السابعة والنصف صباحا:

- الشاويش "عبد الفتاح" ورجالته عارفين الأرض كويس يا "زكريا"!! نستدعيه وهيكون هنا خلال خمسين دقيقة.

- خلاص يا "جمال".. استدعي الشاويش عنتر بتاعك يا سيدي.
- إنت بتقول فيها؟ هتشوف لما ييجي إنه عنتر فعلا.

أرسل "جمال" الإشارة طالبا حمالات كتيبته، وسحب "زكريا" الهجوم وأوقف العملية، مخطرا القوات بإعادة الهجوم في تمام الثالثة عصرا[33]

وصل الشاويش "عبد الفتاح" بحمالات الكتيبة السادسة في غضون أقل من ساعة من استدعائه، وبدأت محاولة الاقتحام لثالث مرة بعد عشرين دقيقة من القصف بالهاون من جانب القوات المصرية، وكثف العدو نيرانه المضادة، لكن الشاويش "عبد الفتاح" تمكن من اقتحام البلدة من جديد!! بينما دخل "غالي مسيحة" بقوات مشاة الكتيبة الأولى، واتخذوا مواقعا دفاعية، قبل أن يصدر قائد العملية أوامره قائلا:

- مشاة الكتيبة الأولى هتستمر في مواقعها لتأمين المجحز. بقية القوات تنسحب لمواقعها.

ثم التفت لجمال وهو يقول هامسا:

- معلش يا "جمال"! أوامر "نعمة الله" إن قوات من كتيبتنا هي اللي تستمر في المجحز! عاوز ياخد فضل تحريرها طبعا.
- المهم نحافظ على اللي حققناه يا "زكريا".

[33] تفاصيل المعركة ووقائعها بما فيها فشل الهجوم الأول حقيقية

ابتسم "جمال" و"كمال بشارة" وهما يتبادلان النظرات ولم يعلق أحدهما، وإن لم يسمع "كمال" تفسير "زكريا"، فقد كان مفهوما للجميع أن قائد الكتيبة الأولى يريد الاحتفاظ بقواته في الموقع لينسب لنفسه الفضل في معركة الجحز الثانية .. لم يكن يعرف أن القدر يدخر معركة الجحز الثالثة .. وبأقرب مما توقع الجميع.

قام العدو بهجوم ليلي لم تثبت أمامه مشاة الكتيبة الأولى، وانسحب بها قائدها بعد ساعة من تبادل إطلاق النيران. وصدرت الأوامر من قيادة اللواء بتحرير الجحز من جديد وبمشاركة العديد من الكتائب، وأعلن قائد اللواء أنه بنفسه سيقود العملية!! ولكنه استغرق ثلاثة أيام ثمينة في إعداد قوة الهجوم! عرض خلالها "جمال" على أركان اللواء أن يشارك مع القوات المهاجمة لأنه يعرف المكان جيدا، لكن الإجابة كانت الصلف والكبرياء! وكانت النتيجة هي فشل الهجوم الثالث الذي تأخر كثيرا، بعدما أقام العدو تحصيناته على مداخل القرية، ليسد المنفذ الوحيد الذي كانت الحمالات تعبر منه، وتصبح البلدة محصنة بالخور الطبيعي فضلا عن تحصينات العدو المقامة حديثا.

عاد "جمال" بعد وصول معلومات فشل الهجوم الثالث لغرفته، تلك الغرفة في المعسكر الإنجليزي المهجور، والتي كانت بلا سقف ولا أبواب ولا نوافذ، وكان المسيطر عليه هو السؤال الذي أغضب الجميع عندما أفلت منه في الإشارة: معركة التحرير الأولى كانت حربا! مفهومة الدوافع والأهداف والتكتيك! كل ما جرى بعدها من فقدان الموقع والتخاذل في استرداده، ثم إعداد خطة كيدية، ثم الحرص على الجد الشخصي الذي

عرضها لاحتلال العدو للمرة الثالثة، ثم استنفاذ الجهد في حشد قوات كبيرة، ورفض انضمام القوات التي خبرت أرض المعركة، ومن ثم .. فشل الهجوم واستقرار العدو في الجحز! كل هذا .. هل كان حربا أم هزلا؟ بدا له التخطيط على مستوى القيادة مشبها غرفته تلك! لا يغني ولا يحمي! كان هزلا بالطبع، لكنه هزل بمذاق النيران والدماء

الصاغ جمال عبد الناصر أمام غرفته المهدمة في عراق المنشية

(١٠)

دماء على دفتر النكبة

الزمان: ٨ أكتوبر

المكان: الفالوجا

في يوم الجمعة الثامن من أكتوبر، كان "جمال" في غرفته يكتب يومياته، وفيها ملاحظاته عن تحركات العدو، كتب في ذلك اليوم:

"طلبت وضع سرية بالكتيبة وسرية بالدرايمة، وقلت إن اليهود بنشاطهم في "ذكرين" و"دير الريان" في "آنستا"، ونشاطهم في "الحجحز" وفي "أبو جابر" في الجنوب .. ينوون على ما أعتقد فتح طريق في هذا القطاع. بينت ذلك لفؤاد بك ثابت وصلاح سالم وعبد الفتاح فؤاد"

كان يكتب وهو يشرب الشاي، استعداد للخروج مع إحدى السرايا في مهمة إزاحة العدو عن موقع احتله وحصنه على طريق عراق المنشية-بيت جبرين، وفجأة .. ارتجت الغرفة من حوله بعنف! كان هناك انفجار قريب، لكنه لم يصب الغرفة نفسها بأي أذى، سوى سقوط مصباح الكيروسين (لمبة الجاز) الذي كان "جمال" يكتب على نوره

الواهن يومياته، وانكسار زجاجته! جمع "جمال" قطع الزجاج المنتشرة، فجرحت شظاياها يده، وسقطت قطرات من دمه على غلاف دفتر اليوميات.

هل كانت تلك الواقعة رمزا قدريا لمستقبل "جمال عبد الناصر"؟ هل كان قدره أن يجمع شظايا هذا الوطن العربي، لتصطف بوجه العدو، فتطاله بعض تلك الشظايا بالجراح؟ ربما!! هل كان يعلم أن تلك الدماء ستعيش بعد صاحبها، لتكون مع أوراقه شاهدا له، يخرج للنور بعد ستين عاما؟ المؤكد أنه لم يكن يعلم.

لكن تلك الدماء كانت لها دلالة أخرى مؤكدة، فقد كانت القذيفة التي ارتجت لها غرفته هي أول قذيفة دبابة تسقط في فلسطين! تلك الدبابات التي غيرت – مع الطائرات رياعية المحركات – مجرى الحرب.

فقد استدعي "جمال" لغرفة الرياسة ليرد على اتصال تليفوني من قائد السرية المرابطة أمام مستعمرة "جات" اليهودية. ومن الطرف الآخر جاءه الصوت يحمل المفاجأة:

- العدو بيتقدم بالدبابات!
- دبابات!!! إنت متأكد؟

ضرب "جمال" رأسه بيده، فلا شك أن خطئين فادحين قد ارتكبا! الأول عدم قدوم الدبابات المصرية لفلسطين، والثاني عدم الاستعداد بمدافع مضادة للدبابات. أُجيب

"جمال" عندما سأل قائد اللواء من قبل عن سبب عدم اصطحاب القوات المصرية للدبابات:

- الدبابات دخلت الورش في القاهرة علشان تتدهن وتتجهز لموكب المحمل الشريف، كمان أرض المعركة في فلسطين فيها مرتفعات وتلال وغير مناسبة لمعارك الدبابات.

ولهذا السبب نفسه طلب قائد اللواء من "جمال" أن يترك المدافع المضادة للدبابات في غزة ولا يجلبها مع الكتيبة لأسدود ثم بيت جبرين وعراق المنشية، فقد قال له أنها "لا لزوم لها في هذه المعركة"!

"هاهي الدبابات في فلسطين تخوض معركة أمام لحمنا العاري يا سيادة اللواء"

هكذا فكر "جمال" وهو يلعن سوء التخطيط، والقصور المريب في جمع المعلومات من قبل جهاز التحري والاستطلاع في الجيش! كيف دخلت هذه الدبابات إلى فلسطين، ومتى تم تدريب العدو عليها؟ وكيف ظهرت أمامنا فجأة في عراق المنشية؟ هل كانت تلبس طاقية الإخفاء مثلا؟ أم على عيون القوم أقفالها؟

بعد تلك الليلة وما كتبه "جمال" في مذكراته، توالت الأحداث سريعا؛ فكل الخروقات السابقة لوقف إطلاق النار كانت عادة في صورة معارك حول نقاط محددة، وكانت كل معركة تنتهي بزيارة من لجنة الهدنة وتجديد وقف إطلاق النار! لكن العدو

هاجم هجوما مفتوحا في مختلف المواقع يوم ١٦ أكتوبر، وأفاده قطعا استخدام مدافع الماكينة من الطائرات ذات الأربع محركات، واستعمال الدبابات للمرة الأولى! ورغم ما كبدته القوات المصرية والسودانية من خسائر فيها، كان مدده لا ينتهي! وتوالت سيطرته على الطرق تدريجيا، وركز القصف الجوي والمدفعي على الفالوجا، وإن لم تمكنه القوات المصرية من احتلالها أبدا، فقد كانت الكتيبة السادسة مرابطة على بعد بضعة كيلومترات منها، وبالقرب من مواقعها تمركزت الكتيبتان الأولى والثانية! لكنه استطاع تطويق الكتائب الثلاثة من كل جانب، هكذا أصبح قطاع الفالوجا محاصرة اعتبارا من يوم ١٧ أكتوبر ١٩٤٨م. وبدأت القوة المصرية المحصورة هناك تعاني من نقص حاد في الذخيرة والإمدادات! أصبح الصاغ "جمال عبد الناصر" تحت الحصار!

تهجير الفلسطينيين من قراهم على يد عصابات اليهود

(١١)

تحت الحصار

الزمان: ٢٨ أكتوبر ١٩٤٨م

المكان: الفالوجا

كان يوم ١٧ أكتوبر يوما عصيبا في الفالوجا، فقد اقتحم اليهود دفاعات المدينة من جهة المدرسة بالدبابات، وكانوا مدعومين بالطائرات. كان الرصاص والقذائف في كل مكان. خرج "جمال" من مقر قيادة الكتيبة وحمل بيده مدفع التومي ليشارك في المعركة! فلم يعد للتنظيم دور وقد صار العدو داخل عراق المنشية بالفعل! مع الشعور بالخطر حمل كل فرد سلاحه، حتى العمال والطباخين وسائقي السيارات، والذين أبدى أحدهم واسمه "عزت"[34] بطولة نادرة.

كان عدد الجرحى كبيرا نتيجة للقصف الجوي المركز، ولاستخدام العدو الدبابات! ولم يكن بيد الجنود المصريين سلاح متطور مضاد للدبابات عدا بعض مدافع "بيات" التي تصوب على سير الدبابة وبقوة تدمير ضعيفة ومحدودة الجدوى! لهذا كانت الدبابات

[34] التقى "جمال" بعد الثورة بعزت في أحد المستشفيات العسكرية، واكتشف إصابته بالسل في العظام، ولم يكن في مصر وقتها علاج لحالته، فأمر "جمال" بسفره للولايات المتحدة لتلقي العلاج. لكن القدر عاجله، رحمه الله رحمة واسعة، فهو الرجل البسيط الذي كان له قلب أسد على حد وصف "جمال" في يومياته

سلاحا ناجعا بيد العدو. ومع ذلك فقد كمن المصريون لدبابات العدو عند حقل التين الشوكي القريب من المدرسة، وكان رتل دبابات العدو مكونا من ست دبابات. صوب الجاويش "عبد الفتاح" مدفعه على سير الدبابة الأولى بعد أن اقترب منها مسافة أمتار قليلة ليتغلب على ضعف قوة تدمير مدفع "بيات"، وأطلق قذيفته فدمر الأولى. وصوب قائد الفصيلة مدفعه للثانية ودمرها كذلك بمقذوف واحد. وانفجرت الدبابة الثالثة بأحد الألغام الأرضية المضادة للمركبات. بعد تدمير ثلاث دبابات أدارت باقي الدبابات أبراجها للخلف وانسحبت خارجة من عراق المنشية. بعد معركة الدبابات الصغيرة تلك اندفع الجنود ليعيدوا الأسلاك الشائكة التي حطمتها الدبابات لمكانها.

تذكر "جمال" التغير النوعي الذي أحدثته العجلات الحربية في جيوش الرعاة الآسيويين (الهكسوس) عند احتلالهم لمصر! عندما قال صديقه "كمال":

- الحرب الحديثة بتعتمد على السلاح وتفوقه النوعي بقدر ما تعتمد على الرجال. الشجاعة مازالت ضرورية لكنها مش كافية لوحدها علشان تكسب حرب.

فأجابه "جمال" متمما لعبارته، وهو يرفع مدفع التومي في يده:

- وطول ما مصدر سلاحنا هو الغرب المتحالف مع العدو الصهيوني عمرنا ما هنكسب حرب. مش هيسمحوا لنا نقارن بالعدو فضلا عن التفوق عليه. زي ما إنت شايف، العدو غير معايير المعركة باستخدام الطيارات رباعية المحركات،

والدبابات! عدد الشهدا والجرحى في اليومين الأخيرين أكتر من عددهم طول الشهور اللي فاتت!

عاد "جمال" لمقر رياسة الكتيبة، وأرسل طلبا عاجلا لقيادة اللواء بإرسال مدافع مضادة للدبابات بأي صورة. كان يعرف صعوبة الاستجابة لطلبه، فعراق المنشية محاصر من كافة الجهات، والقوات التي ستأتي بالمدد ستتعرض لهجوم العدو الرابض على الطرق، لكن ضابطا شجاعا استطاع أن ينفذ من كمائن العدو لعراق المنشية ومعه المدافع المطلوبة، فطلب "جمال" من القيادة نيشانا له تقديرا لهذه البطولة النادرة.

كان إخلاء الجرحى والوصول بهم للمستشفى في الخليل مشكلة كبيرة، فقد كان العدو يحاصر قطاع الفالوجا–عراق المنشية من ثلاث جهات ويقطع عنها الإمدادات، ولم يترك للقوات غير طريق واحد للانسحاب نحو غزة!! وقد صار قائد الكتيبة ضابطا رائع السمعة هو البكباشي "السيد طه"، الملقب بالضبع الأسود! وقد اجتمع رأيه مع أركان حربه الصاغ "جمال عبد الناصر" في بداية الحصار على عدم الانسحاب. ورغم رفعهم هذا الرأي لقيادة اللواء، وردت إليهم الأوامر في ٢١ أكتوبر على غير ما أرادوا، فقد دخل البكباشي "السيد طه" على "جمال" مقر القيادة وهو مكفهر الوجه، وقال:

- فيه أمر بالانسحاب الساعة ١٨ هيوصلك دلوقت بالإشارة يا "جمال"!
- يعني كلامنا معاهم في مؤتمر قيادة اللوا مجابش نتيجة؟!!
- مفيش فايدة فيهم! قادة الألوية مهزومين بالفعل قبل ما ييجوا الميدان.

- والناس؟ الناس يا افندم؟ السكان الفلسطينيين اللي تعاونوا معانا في المنطقة! هيكون إيه مصيرهم بعد انسحابنا؟ كل السكان من عراق المنشية لبيت جبرين! هنسيبهم لعصابات اليهود[35]؟
- مش عارف هيكون مصيرهم إيه، لكن أكيد مصير مؤلم في كل الأحوال!

هكذا أجابه "السيد طه" وهو يشاركه الألم والقلق على مصير تلك العائلات بنسائها وأطفالها وشيوخها!

- طيب وعراق المنشية اللي صمدت قدام مدرعات اليهود وطيرانهم، هنسيبها بالسهولة دي تقع في إيديهم؟

لم يكن البكباشي "طه" أقل منه لوعة وانزعاجا! فهو مقاتل وبطل حقيقي، لكنه في النهاية عسكري منضبط ويجب أن يلتزم بالأوامر الصادرة إليه.

وصلت الإشارة بالانسحاب فعلا للكتائب الثلاثة في قطاع الفالوجا. وبدأ الضباط والجنود في حزم شدة الميدان استعدادا للرحيل، ثم وصلت إشارة جديدة بإلغاء الانسحاب. كادت عينا "جمال" تفيض وهو يقرأ الأمر الجديد، وطار إلى حيث البكباشي "طه" يخبره، فلم يملك الأخير فرحته حتى أنه عانق "جمال" مهنئا، والذي أجابه قائلا:

35 هكذا فكر وكتب في مذكراته عند ورود أوامر الانسحاب أول الأمر

- التهنئة فعلا يا افندم هتكون مع إشارة استئناف القتال، لازم نسيطر بسرعة على موقع "خربة حمدي العملين" قبل العدو ما يحتلها.
- خلاص، جهز "أبو زيد" وسريته للتحرك أول ما توصل الأوامر بالاشتباك مع العدو، وتوصل الذخيرة الجديدة.

لكن الأوامر والذخائر تأخرت كالعادة، وجاء اليوم التالي ليحمل معه خبر استيلاء اليهود بالفعل على "خربة حمدي العملين"! وكذلك "خربة أبو رحمة" و"خربة كركرة"! بهذا كان الطريق الوحيد للانسحاب قد قطع، ولم يعد هناك للقوات أي طريق نحو المجدل أو الخليل .. أو حتى غزة!

في المساء أعلن البكباشي "طه" عن تخفيض التعيينات الموزعة على القوات للربع، لتكفي التعيينات المتوفرة أطول فترة ممكنة، وهي ١٢ يوما مع الاقتصاد الشديد فيها. وفي ٢٧ أكتوبر توالت الأخبار! العدو يحتل بير سبع، وبيت جبرين وبيت العزة، وغيرها كثير من النقط الحصينة على طرق مواصلات الجيش المصري، وبهذا صار اللواء الرابع معزولا في الفالوجا، واللواء الثاني في أسدود والثالث في النقب!

صباح يوم ٢٨ أكتوبر كان "جمال عبد الناصر" في خيمته يسمع راديو القاهرة. تحدث "النقراشي باشا" رئيس الوزراء عن الحرب حديثا حماسيا، ونفى نفيا قاطعا أن

يكون اليهود قد احتلوا "بير سبع"[36]!!! كذلك ذكر الباشا أن لواء جديدا يتم إعداده في القاهرة لإمداد القوات. دخل عليه البكباشي "سيد طه" وهو يمسك بيده ورقة ويقول ساخرا وهو يلوح بها:

- الباشوات باعتين لنا أمر بالاستيلاء على بيت جبرين! وطبعا مفيش حس ولا خبر عن الذخيرة! جهز نفسك يا "جمال" علشان نروح نحدف الصهاينة في بيت جبرين بالطوب.
- و"النقراشي" باشا بيؤكد للناس عدم احتلال بير سبع!!

قطع حديثهما أزيز طائرات العدو تحلق فوق المعسكر!

- واضح من الصوت إن الطيارات على ارتفاع منخفض، خلي جماعات الفيكرز تحاول التصويب عليها يا جمال قبل ما يبدأ القصف.

خرج الاثنان عدوا من الخيمة، فإذا بالسماء والأرض قد غطتها أوراق تتطاير! العدو يلقي بالمنشورات إذن ولم يأت للقتال. توقفا وكل منهما يلتقط ورقة من منشورات العدو، وأخذ "جمال" يقرأ ما فيها، وتلك اللغة العربية الركيكة التي كتبت بها:

---

[36] لاشك أن البيانات الكاذبة التي أذيعت لمدة يومين حول نكسة يونيو ١٩٦٧ خطيئة كبيرة بحق الشعب، لكن الغريب والمريب أننا نتذكرها دائما ونستدعيها دائما، ولا نتذكر أبدا أن هذا كان تكرارا لخطيئة تمت في العهد الملكي .. أزهى عصور الديمقراطية والليبرالية الذي يتباكى عليه بعضنا اليوم، وكان من قاله رئيس الوزراء نفسه وليس مجرد مذيع في صوت العرب!! لكن آفة حارتنا النسيان حينا .. والهوى والغرض أحيانا

"أيها الضباط والصف والعساكر في اللواءين الثاني والرابع، هل تعلمون أنكم محاطون؟ اللواء الثاني محاط به وكذلك الرابع ولا توجد أي وسيلة اتصال بينهما. هل تعرفون ما هو معنى الإحاطة؟ الإحاطة معناها الفناء والموت وإنكم لتشعرون بهذا في القريب العاجل. ولا يستطيع قوادكم أن يبروا بوعودهم الكاذبة، قائلين بأن النجدات من الرجال والمهمات والوقود ستصلكم قريبا .. كلا. احتلت القوات الإسرائيلية بئر سبع بعدما دكت قواتكم دكا وسحقتها سحقا. وإذا اتكلتم على النجدات التي سيرسلها الملك عبد الله، فاعلموا أنه لا ينوي إلا طرد قواتكم من قواعدها في بيت لحم والخليل. فإنكم ترون الآن في هذه البلاد نتائج الدعاية الكاذبة التي كنتم تصدقونها قبل ما أرسلتم من مصر! وصف قوادكم وساستكم "مرحلة" فلسطين بأنها سهلة، ووعدوكم بالغنائم والتمتع. أين الغنائم وأين التمتع؟ لم تجدوا هنا إلا المصائب، ولم تلاقوا إلا الخسائر الفادحة، ولن تلاقوا غير هذا في المستقبل. وقد شاهدت عيونكم بأن اليهود يجيدون الدفاع عن وطنهم وأراضيهم، ويحسنون التحارب، فإنهم لم يحتلوا بلادا غريبة، ولم يفتكروا – ولا يفتكرون – في احتلال أي بلاد ليست لهم. وإذا تطلعتم للخريطة تبين لكم أن القوات الإسرائيلية تحيطكم إحاطة السوار بالمعصم.

عليكم أن تختاروا؛ إذا أردتم البقاء في الحياة فاستسلموا، وستعودون سالمين ولا تصدقوا الدعايات القبيحة بأننا نقتل الأسرى، قوادكم يريدون الأوسام والنياشين ولا

يهتمون بموت المئات والآلاف. اللواء "أحمد محمد علي النواوي بك" أمر بالقتال حتى الموت، ولكن أين صاحب العزة الآن؟ ولى دبره تولية الجبان بعدما أسرنا ضباط من رئاسته! أين قائد بئر سبع؟ ترك جنوده وهرب. كل من يحضر وبيده هذا المنشور ستؤمن حياته ويعود سالما إلى بيته. ثقوا بأننا سنحترم حقوق مندوبكم الذي يأتي حاملا الراية البيضاء.

أعلمتم .. أنذرتم"

خاطب "جمال" قائده بصوت مرتفع يتغلب به على صوت الطائرات:

- بيطالبونا بالتسليم ويتعهدوا بسلامتنا! لكن إيه كل التفاصيل دي؟
- حرب نفسية يا "جمال"، علشان نحس إننا مكشوفين قدامهم.
- طيب بعد إذنك يا افندم ..

قالها "جمال" ولم ينتظر الإذن فيما يراه واجبا! كانت الطائرات فوقه وهو واقف في فناء المعسكر، عندما هتف في الجنود قائلا:

- يا رجالة .. الصهاينة عاوزينا نسلم .. صحيح إحنا متحاصرين من يوم ١٦، وصحيح مفيش تعيين بيوصلنا، وصحيح كمان إن ذخيرتنا تقريبا خلصت! وصحيح إن مفيش إمداد جوي وصل لنا لحد دلوقت. لكن .. هل معنى كدة إننا ننسى الشنبات اللي في وشنا ونسلم للصهاينة؟ هنسيب الستات والعيال اللي حوالينا من

السكان لليهود غنيمة مستباحة؟ ولا هنحارب لآخر طلقة، وبعد آخر طلقة لآخر راجل فينا. عشنا رجالة وهنموت رجالة. تمام؟

"تمام يا أفندم" هكذا تعالت الأصوات، ليستأنف "جمال" قائلا:

- طيب حد يجيب لي لمبة جاز، وجمعوا لي كل منشورات العدو هنا.

قالها وهو يمزق الورقة بيده ويضعها على الأرض، قبل أن يناوله جندي لمبة الجاز فيفتحها ويفرغ ما بها من كيروسين على الأوراق، ويشعل فيها النار بقداحته! فيأتي كل الجنود ويلقوا الأوراق التي جمعوها في الآتون الذي أشعله، ويفعل البكباشي "طه" مثلهم وهو يربت على كتف "جمال" ويقول:

- عاشت الهمة يا "عبد الناصر" .. عفارم.

ابتسم له "جمال" شاكرا، ثم رفع عيناه نحو طائرة العدو التي اقتربت من جديد، وكان قائدها ينظر للجنود وهم يشعلون النار في الأوراق.

لقد وصل رد القوات الصامدة للعدو .. وصل بلغة النيران رغم نفاذ الذخيرة!! وهو عين ما أراده "جمال"!!

(١٢)

وجها لوجه

الزمان: ٣١ أكتوبر ١٩٤٨م

المكان: قطاع عراق سويدان/الفالوجا/ عراق المنشية

بعد وصول الإمداد الجوي بست طائرات من القوات الجوية المصرية لسماء القطاع المحاصر، وإلقاء التعيينات والذخيرة من الجو يوم ٢٩ أكتوبر، استعادت القوات المحاصرة نشاطها وحماسها على الفور، وطلب "السيد طه" من "جمال عبد الناصر" أركان حرب الكتيبة إعداد خطة تدعيم دفاعي للقطاع المحاصر. في صباح اليوم التالي دخل الصاغ "جمال" على قائده البكباشي "طه" في غرفة القيادة، مؤديا التحية العسكرية ومعطيا تمام الخطة المطلوبة:

- الخطة الدفاعية جاهزة للعرض على سيادتك يا افندم.
- تعال يا "جمال"

قام "السيد طه" ليقف أمام خريطة تأمين عراق المنشية، وبدأ "جمال" يشرح خطته، وقد تلخصت في:

- سحب القوة المرابطة في عراق الأمير، وتدعيم قوات الفالوجا وعراق المنشية والكوبري الرابط بينهما بها.
- إعادة تنظيم الخط الدفاعي في عراق المنشية، وتدعيم المدخل الجنوبي بالأسلاك الشائكة.
- توزيع المدافع المضادة للدبابات وستر مواقعها، بحيث يوضع مدفع بجوار مدرسة القرية، وآخر عند المدخل الشمالي الشرقي، وثالث عند المدخل الجنوبي الشرقي، ورابع عند تبة الثلاث شجرات.

على أن تتم تلك الأعمال ليلا حتى لا يرصدها طيران العدو المنخفض فوق المواقع[37].

- نفذ يا "جمال"، بس ابدأ العمل مع حلول الظلام مباشرة، متوقع العدو يهاجم الليلة بعد رفضنا التسليم، ومع وصول خبر الإمدادات الجوية ليه.

أدى "جمال" التحية منصرفا وبدأ التنفيذ بالفعل مع آخر ضوء، وصدق ما توقعه "السيد طه"، فقد حاول العدو اقتحام عراق المنشية في التاسعة ليلا، فكبدته القوات المصرية خسائرا كبيرة في الأرواح، وكان للمدافع أثر قوي في الدفاع عن مداخل المدينة، حيث هاجم اليهود من مدخلين. وأدى طاقم المدفع عند مدرسة القرية أداء مبهرا كان

37 تفاصيل الخطة كما جاءت في اليوميات

موضع إطراء القائد وقائد الأركان. وصدر قرار جديد بتجديد وقف إطلاق النار قبله الجانبان.

في المؤتمر التالي لقيادة اللواء والذي حضره قادة الكتائب المحاصرة، كان رأي الأغلبية وبينهم "جمال" أن الهدف من وجودهم في مواقعهم الحالية قد انتفى! فقد كانت أهمية المواقع الحالية هي فصل قوات العدو في النقب الجنوبي عن الشمال، والآن قد اتصلت قواته بالفعل ولم يعد هناك فائدة كبيرة من وجودهم في تلك المواقع، إنما يفيد المعركة لو أعادوا تموضعهم بالتحرك نحو الخليل لينضموا للقوات المصرية هناك.

في صباح اليوم التالي، لاحت من بعيد سيارة للعدو ترفع علما أبيضا، ففهمت القوات أنهم جاءوا في مهمة تفاوضية، وعندما اقتربت اتضح الصوت الذي يخرج من مكبر الصوت المثبت أعلاها وهو يقول:

"ضابط إسرائيلي يطلب مقابلة ضابط مصري .. ضابط إسرائيلي يطلب مقابلة ضابط مصري"

كان "جمال" حريصا على الخروج للقائهم بنفسه، وفي أبعد نقطة ممكنة عن تحصينات البلدة، حتى لا يسمح لهم بالتطلع بعيونهم للتحصينات ودراستها، لهذا قفز في عربة جيب مكشوفة ومعه ضابطان، ومعهم جاويش مسلح بمدفع تومي.

كانت مشاعر "جمال" متضاربة خلال رحلة الجيب القصيرة إلى حيث تقف سيارة العدو! فهو أول لقاء بغير قتال مع العدو. طلب من السائق أن يتوقف بمحاذاتها، ونزل ومعه الضابطان من السيارة. ووجه نظره لمن قدَّر أنه الاعلى رتبة من الضابطين اليهوديين، قائلا:

- وفقا لاتفاقية هوج لعام ١٩٠٧م[38]، وللفصل الثالث، المواد رقم ٣٢، ٣٣، ٣٤، تفضل بما جئت من أجله.

تحدث أحد اليهوديين قائلا بعنجهية شديدة، وباللغة الإنجليزية:

- أنا المساعد الشخصي للقائد العام لهذا القطاع، وأنا مكلف بأن أشرح لكم موقفكم. أنتم محاصرون من كل جانب ونحن نطلب منكم التسليم.
- أما موقفنا فنحن نعرفه جيدا، وأما التسليم فلن يحدث. نحن هنا ندافع عن شرف جيشنا.

هكذا أجابه "جمال" بصوت شديد الثبات، وهو يشعر بسكينة تلف كيانه كله، وتنعكس على نبرات صوته أمام العدو. أمام هذا الموقف الصلب تنازل اليهودي عن إنجليزيته، وبدأ الحديث بعربية طلقة كشفت أصوله، يحاول التهويل من صعوبة موقف القوات المحاصرة، فأعاد "جمال" ما قاله مرة ثانية. وأمام هذا الإصرار سأله اليهودي:

---

38 الاتفاقية المنظمة لقواعد وأخلاقيات الحرب، والفصل المذكور هو المختص باستخدام العلم الأبيض للأغراض المختلفة للتواصل بين أطراف المعركة

- ألن تعود لقائدك لتسأله؟
- لا مجال للسؤال في هذا الأمر، فهو محسوم.

تغيرت نبرة اليهودي فصارت أكثر ودا وهو يقول باللغة العربية:

- هل يمكننا أن نطلب طلبا إنسانيا؟
- ما هو؟
- نريد سحب جثامين قتلانا في المعركة السابقة من موقعكم، فهل تمانعون؟
- نوافق وفقا للأعراف الدولية، سيتم خلال ثلاثين دقيقة تجميع الجثث هنا لتحملوها، ولكن لا تحاول أن تتقدم خطوة واحدة بعد هذا الموقع، ونبه الحمالة التي سترسلها لحمل الجثث بالمثل، وإلا سنكون مضطرين لإطلاق النيران وفقا للبند ٣٤ من الاتفاقية.

عاد اليهودي لسيارته وانطلق بها، وعاد "جمال" لجنوده يطلب منهم إخلاء القتلى للمنطقة المتفق عليها، وعدم السماح لليهود بالتقدم بعدها، والاستعداد لإطلاق النار لو فعلوا. وتم بالفعل إخلاء الأسرى. وبعد ساعة واحدة من تسلم قتلاهم، بدأ العدو في قصف عراق المنشية بمدفعيته، وبكثافة غير مسبوقة!!

كانت مشاعر مختلطة تعتمل في نفس "جمال" بعد هذا اللقاء! كان راضيا عن كل حرف قاله، ومع ذلك ينتابه شعور غريب ، لم يكن شعور الكراهية مألوفا لديه كثيرا،

الكراهية بمعناها الحقيقي؛ أن تشعر بالضيق الشديد لمجرد وجود شخص ما في حيزك المكاني والزمني! هذه إذن هي الكراهية المحضة! والتي لا يذكر أنه شعر بها من قبل إلا تجاه هذا العدو، وتجاه ما يمثله من معانٍ في هذه الحياة؛ الجشع، الظلم، الانتهازية.

لم يمهل القصف "جمال" ليسبح في أفكاره أكثر من هذا الحد، فقد اشتد لدرجة حتمت النزول إلى الدشم والخنادق. هذا هو الشكر المتوقع من اليهود بعد إخلاء قتلاهم!

(١٣)

في بيت العدو

الزمان: ١١ نوفمبر ١٩٤٨م

المكان: مستعمرة جات اليهودية

حاول العدو اقتحام عراق المنشية وعراق سويدان من جديد يوم ٣ نوفمبر، ثم انسحب بدباباته وقد خابت محاولته. توجه "جمال" بتكليف من "طه" لعراق سويدان للتمام على الدفاعات، فداهمه القصف هناك، واضطر لنزول الخندق والنوم فيه حتى الصباح.

عاد لعراق المنشية فوجد طائرات العدو تسقط منشورات حول احتلالها للمجدل وانسحاب الجيش المصري نحو غزة، وتطلب منهم الانسحاب، فقام الجنود تلقائيا بتكرار ما فعله "جمال" في المرة الأولى.

في صباح الأحد ٧ نوفمبر سمع "السيد طه" من راديو لندن أن الحكومة المصرية طلبت سحب قواتها، ورفض اليهود ذلك واشترطوا تسليم السلاح والضباط مقابل انسحاب الجنود. أسر بهذا لجمال وطلب منه ألا يخبر أحدا حرصا على المعنويات التي كانت منخفضة بالفعل منذ انسحاب الجيش لغزة قبل يومين. وفي صباح الاثنين ٨ نوفمبر أذاع راديو القاهرة خبر انسحاب القوات المصرية من غزة إلى سيناء، ثم تم تكذيب الخبر من قبل وزير الحربية! وتأكدت القوات المحاصرة من صدق الخبر بعد هذا.

وصلهم البريد ومعه الجرائد من مصر! صحيفة الإخوان تتحدث من جديد وكأن المتطوعين العرب كلهم إخوان، بل وضباط الجيش المصري كذلك!! بل وتجاسرت على نسبة البطل "أحمد عبد العزيز" للإخوان بعد وفاته!

وصل كذلك أمر ملكي بترقية البكباشي "السيد طه" إلى رتبة "آميرالاي" ومنحه البكوية، بارك له الضباط والجنود جميعا بفرحة صادقة، فقد كان قائدا ميدانيا رائعا، شتان بينه وبين "نعمة الله بك" أو "جاد بك" في منهج القيادة وروحها! لكن مع المساء تبخرت الفرحة وانقطعت كلمات التهاني! فقد سقطت عراق سويدان! وكان سقوطها مدويا!

اشتد ضرب المدفعية لها طوال الليل بكثافة عالية، وأعقبه هجوم بالطائرات رباعية المحرك، ثم الهجوم البري بالدبابات، وقد صمدت القوة المرابطة فيها لآخر طلقة وآخر رجل بصدق، فلم يخرج منها غير جندي واحد وضابط واحد بعد نفاذ ذخيرتهما. ورقد الباقون بين شهيد وجريح.

طلب الأميرالاي "السيد طه" من مدفعية الفالوجا ضرب مستعمرة "جات" القريبة منها، رغم نقص الذخيرة، وكان هدفه هو الرد على سقوط عراق سويدان! وبالفعل قامت المدفعية بقصف المستعمرة قدر ما سمح لها مخزون ذخيرتها.

في صباح العاشر من نوفمبر، جاءت السيارة تحمل العلم الأبيض من جديد، وخرج لها "جمال" بنفس كيفية المرة السابقة. كانت تحمل معها هذه المرة طلبا باجتماع مع قائد القوات وتركت للجانب المصري اختيار المكان بين بيت جبرين ومستعمرة جات. كان

الطلب موجها لطه باسمه هذه المرة، فعاد "جمال" لداخل البلدة ليخبره، وتعجب من رد "السيد طه" هذه المرة وهو يقول:

- بلغهم إني موافق! بكرة سعت ١٥ في مستعمر جات.

هم "جمال" بأن يناقشه في الأمر، فعاجله "طه" بقوله:

- بلغهم الرد، وبعدين نتكلم.

أبلغهم "جمال" بموافقة القائد، وعاد ليلحق بالآميرالاي "طه" في مقر القيادة الجديد، حيث خصص منزلا هجره سكانه بعد سقوط قنبلة فيه لذلك الغرض. على مقعد نصف مكسور جلس "طه" وهو في كرب عظيم. وفور دخول "جمال" بدأه القائد بالكلام:

- الوضع أصبح مختلف يا "جمال" بعد سقوط عراق سويدان، وانسحاب الجيش المصري من فلسطين، ونفاذ الذخيرة. حفظ حياة الجنود هو واجبنا دلوقت.
- أنا كنت مع فكرة المناورة والتقهقر للخليل خلال مؤتمر قيادة اللواء يا افندم زي ما حضرتك فاكر طبعا، لكنهم دلوقت عاوزينا نسلم السلاح؟
- مش هنسلمه، هنعرض عليهم الانسحاب بكامل قواتنا وعتادنا، نبقى حاولنا لآخر فرصة. هنرفض أي وضع مهين لينا وللجيش المصري قطعا.

يعرف "جمال" تماما أن الضبع الأسود "سيد طه" لا يجنح للتفاوض خوفا على نفسه، فقد كان دائما مثالا للشجاعة، ولكنه شعوره بالمسئولية عن جنوده في وضع عسكري بائس تماما.

في اليوم التالي تحركت الهامر بكل من "السيد طه" و"جمال عبد الناصر" و"رزق الله الفسخاني" و"إبراهيم بغدادي" و"خليل إبراهيم" نحو مستعمرة جات! استقبلهم اليهود عند الباب وقالوا إن القائد بالداخل يدعوهم للقائه! وبداخل المستعمرة شعر الضباط بالنقلة الحادة بين الرفاهية الموجودة بالمستعمرة رغم حالة القتال، وبين الحالة البائسة في عراق المنشية وكافة البلدات الفلسطينية! كان السؤال الذي يفرض نفسه على العقول: لماذا توفرت كل سبل النجاح لليهود في حياتهم وحربهم على السواء، بينما فرضت كل ظروف الفشل والتعجيز على العرب في حياتهم وفي حربهم؟ من غير الاستعمار يفرض علينا هذا السياج من التخلف والفقر؟ مقابل ما يرونه هنا من ميكنة زراعية كاملة، ومنازل أنيقة، وحياة فارهة بأقصى ما تسمح ظروف الحرب؟! رأوا كذلك بعض آثار الدمار من قصف المدفعية أول أمس، لكن المساحة الزراعية الواسعة داخل السياج والتي توفر مسافة واقية للمنازل في وسط المستعمرة قد جعلت قصف المدفعية محدود الجدوى للغاية. عند هذه النقطة همس "جمال" بأذن القائد:

- اليهود تعمدوا يكون اللقاء هنا، في سياق الحرب النفسية برضو! رفضنا ندخلهم عراق المنشية لجمع قتلاهم علشان ميشوفوش نقاط ضعفنا، وهم تعمدوا يدخلونا

علشان نشوف نقاط قوتهم. مهم قوي ميبانش على حد فينا الانطباع اللي هم عايزين يشوفوه يا افندم.

على مائدة المفاوضات جلس الجميع، ووضع الجنود اليهود أبريق الشاي والفناجين، وأطباق الحلوى والشيكولاتة. لم يمد أحد الضباط يده لما قدموه، وتحدث القائد اليهودي بلهجة محايدة في البداية:

- لا نريد سفك المزيد من الدماء، موقفكم ميئوس منهم كما تعلمون، ولهذا أنصحكم بالاستسلام.

اعترض حديثه الآميرالاي "سيد طه" بلهجة قاطعة:

- فكرة الاستسلام مرفوضة تماما، نعرض الانسحاب إلى غزة بكامل قواتنا.
- رائع يا كولونيل! أنت تطلب الخروج بكل قواتك من الحصار بلا ثمن؟ هذا بدوره مرفوض تماما. الحالة الوحيدة التي سنقبل فيها بهذا هي إعلان الجيش المصري انسحابه من الحرب رسميا وبصورة نهائية، ليست لدينا مشاكل مع المصريين، ولا نريدها بالطبع.

أطرق "السيد طه" للحظة، ثم قال:

- واضح أننا لن نتفق. لكن .. لقد وافقنا لكم سابقا على إخلاء القتلى، فهل تسمحون لنا اليوم بإخلاء جرحانا بواسطة الصليب الأحمر للمستشفى العسكري في غزة؟
- أوه يا كولونيل! القتلى غير الجرحى! الأموات ليسوا كالأحياء طبعا. ولكن التزاما منا بأخلاقيات القتال، يمكننا منحكم ما ترغبون به من أدوية ومعدات وأدوات جراحية.

قام الآميرالاي "طه" معلنا انهيار المفاوضات، ووقف الجميع، واتجهوا إلى حيث الهامر، وسيارة يهودية تتابعهم حتى خرجوا من المستعمرة.

"اليهودي لا يعطيك شيئا بغير أن يحصل منك على كل شيء .. كل شيء"

كانت هذه العبارة تتردد بعقل "جمال" طوال رحلة العودة! هذا هو درس مفاوضات القتال مع العدو.

في اليوم التالي عرض اليهود كميات من الأدوية، فقبلها "طه" مضطرا! ثم عرضوا إخلاء الجرحى لمستشفياتهم كأسرى حرب، فرفض رفضا قاطعا. وقال لإبراهيم بغدادي:

- تسليم الجرحى كأسرى مش بس مهين للجيش المصري، كمان هيكون مدمر لمعنويات الجنود! نحاول مع طبيب الكتيبة ننقذ ما يمكن إنقاذه بالأدوية والمعدات اللي خدناها منهم، واللي هيجري علينا في النهاية هيجري عليهم.

عندما عرف "جمال" بموقف قائده المشرف علق قائلا:

- ساعات أسأل نفسي؛ لو كان "جاد بك" مش "سيد طه" هو قائد الكتيبة في الظروف دي، كنت هعمل إيه؟ غالبا كنت هسيب الجيش وأنتقل لمعسكر المتطوعين.

(١٤)

لقاء الأحرار

الزمان: ٢٧ نوفمبر ١٩٤٨م

المكان: عراق المنشية / الفالوجا

عمدت القوات المصرية لتدعيم حراسة الكوبري الواصل بين عراق المنشية والفالوجا، وتكررت زيارة الجيب اليهودية ذات العلم الأبيض لعراق المنشية بهدف التفاوض حول موضوع الجرحى، وقد تأكد للجميع من حرصهم على تسليم الجرحى كأسرى أن لهم مصلحة حيوية في الأمر، لم يكن دافعهم إنسانيا بطبيعة الحال.

في صباح ١٤ نوفمبر، جاء الضابط اليهودي بالأدوية التي تم الاتفاق عليها، كان شابا في نهاية العشرينات من عمره، وحاول كعادته التودد لجمال في حديثه، فبدأ بسؤاله عن الجو في القاهرة وهل يكون ممطرا في هذا الوقت من العام، فأجابه "جمال" باقتضاب كعادته قائلا:

- نعم
- أرجو أن يسود السلام وتعودوا جميعا للقاهرة سالمين.

لم يجبه "جمال" وإن ظل ينظر في عينيه، يحاول اكتشاف ذلك العدو المجهول الذي يحاربه منذ شهور. تحدث الضابط اليهودي يحاول فتح موضوع للحوار بقوله:

- أتعرف؟ الإنجليز هم السبب في وجودنا جميعا هنا، وفي هذه الحرب بالذات! لقد نجحنا في الحصول على استقلالنا عنهم، ونرجو أن تحصلوا على استقلالكم كذلك. وقتها يمكننا قطعا أن نتعاون من أجل بناء بلادنا.
- ستمطر من جديد، سأعود للمعسكر.

تخلص منه "جمال" بتلك العبارة وهو ينظر للسماء. ثم يأخذ الأدوية ويعود أدراجه ليعبر أسلاك عراق المنشية.

هل يمكن أن يكون هذا الفتى مقتنعا بما يقول؟ هو يعرف يقينا أن هذه الأرض ليست أرضه! لم يولد فيها ولم يكبر في رحابها، ولم تملأ ذكرياته أركانها! لقد جاء من بلاد بعيدة، هو يعرف ذلك كما يعرفه "جمال" تماما، ولكنه تكتيك اليهود المعتاد؛ الإيحاء بأمر يريده وكأنه الأمر الواقع. هكذا تكون صناعة اليأس! فلا شك أن اليهود لا ينوون خوض الحرب ضد العرب للأبد، ولكنهم يريدون النوع الذي يناسبهم من السلام؛ سلام اليأس الذي يفرض على الآخر قبوله بالهوان والتنازل عن ثوابته.

هكذا فكر "جمال"، وفكر كذلك فيما حصلوا عليه من اليهود بعد جولتين من التفاوض الميداني؛ بعض أدوية قد تخفف الآلام ولكنها أبدا لن تشف الجراح؟ أهذا كل

شيء؟ وهل كان هذا يستحق؟ هذا العدو لا يستجيب حتى لما تلميه أخلاق الحرب ومعاهداتها من معاملة الجرحى والأسرى. ولا يحترم وقف إطلاق النار إلا ريثما يتخذ مواقعه ويحصن دفاعاته ثم يبدأ خرق الهدنة! لماذا كان الخرق في كل مرة من جانب اليهود وليس الجيوش العربية؟

كانت هذه الفكرة مضمار حوار دار بينه وبين "السيد طه بك" وزميله "الفسخاني"، كان "جمال" يقترح استغلال ما بقي من المدفعية في كسر وقف إطلاق النار وقصف مواقع العدو في "شمال العظاطة" و"الوحيدات"! لكن القائد يرفض فكرة كسر إطلاق النار! ويفضل استخدام الذخيرة النادرة في الدفاع عن عراق المنشية والفالوجا.

في تلك الليلة نام "جمال" محزونا من تلك الروح التي سيطرت على الجميع حتى قائده الشجاع. ولكن جندي مراسلة أيقظه ليستقبل هاتفا بعد منتصف الليل!

كان المتحدث هو "صلاح سالم" يهاتفه من قطاع السودانية القريب منهم في الفالوجا، ويخبره بأنه جاء من غزة وفي طريقه إلى عراق المنشية!

عند الفجر وصل "صلاح سالم" وكان في حالة بالغة من التعب والإرهاق وملابسه مهترئة! وبعد أن شرب كوبا من الشاي وغير ملابسه، بدأ يحكي ما جرى له.

- اتحركت من غزة مع "زكريا محيي الدين"، وتلاتة ولاد عرب ومعاهم تلات بغال محملة بذخيرة الأفراد وبعض المأكولات والأدوية، وكان معايا ميتين جنيه ومع "زكريا" زيهم، علشان تستعينوا بيهم على شرا بعض لوازمكم من الأهالي! الولاد قالوا لنا المسافة ست ساعات، ومع ذلك فضلنا طول الليل ماشيين، وعدت علينا أكتر من دورية يهودية، فكنا بنتدارى منهم في مجاري السيل على جنب الطريق، وكان كل واحد منا يكمم بغل من البغال بإيده .. البغال كانت هتفضحنا.

قالها "صلاح" باسما، لكن "جمال" علق واجما:

- إحنا وصلنا للدرجة دي؟ إمداد وتموين بأسلوب القرن الخامس؟ معلش يا "صلاح"، إنتو تعبتم قوي علشان توصلوا لنا التعيين والذخيرة دي .. بس هي فين الذخيرة والتعيينات صحيح؟
- يا عم إستنى بس .. إنت لسة سمعت حاجة من اللي جرالنا؟!

استمر "صلاح سالم" يروي كيف داهمتهم دورية يهودية بالنيران، فتشتت شملهم، حيث جرى "زكريا" والعربان نحو الشمال وجرى هو جنوبا، واليهود انشغلوا عنهم بغنيمة البغال. بينما ظل "صلاح" يزحف محترزا من دوريات اليهود حتى رأى تبة عراق المنشية بعينيه، فعاد له نشاطه، وعندما اقترب من السلك الشائك في قطاع السرية السودانية

أطلقوا نحوه النيران، فصاح بأنه ضابط مصري وعرف اسمه ووحدته، وبهذا أمكنه الاتصال بجمال، وصحبه السودانيون إلى هنا.

بعد ساعات اتصل "زكريا محيي الدين" من الفالوجا، فعرفوا منه أنه اختبأ في بئر مهجورة حتى مرت الدورية اليهودية، ثم تحرك نحو الفالوجا لقربها منه. توجه "جمال" و"صلاح" للقائه في الفالوجا، ومروا من نيران المواقع اليهودية بصعوبة[39].

في الفالوجا جلس الرفاق الثلاثة حول أكواب الشاي، وهم في حالة استرخاء ما بعد الجهد والقلق. طرح "صلاح سالم" موضوعا قرأه في "روز اليوسف" عندما كان في غزة، الصحفي الشاب "إحسان عبد القدوس" طرح في مقالاته موضوع الأسلحة المستعملة من مخلفات الحرب العالمية التانية التي وصلت للجيش في فلسطين! والتي أرسل بعض قادة الكتائب شكاوى حول أدائها للقيادة العامة في القاهرة.

تحدث "جمال" قائلا:

- كويس إنك فتحت الموضوع ده، قصرت علي السكة. أنا عارف إنكم تعبانين، ومع ذلك مش ضامن هنتجمع تاني إمتى. علشان كدة عاوزكم تصحصحوا معايا شوية علشان نقول كلمتين مهمين. الظباط الأحرار لازم نشاطهم يزيد خلال فترات الهدنة في الحرب دي، خصوصا في ظروف الحصار. لازم نجتذب عدد أكبر من الظباط

39 أحداث محاولة صلاح سالم وزكريا محيي الدين توصيل الإمداد بهذه الطريقة البدائية للقوات المحاصرة كلها من واقع المذكرات

الوطنيين، واللي نحس منهم الرغبة في تغيير الأوضاع المذرية اللي حسيناها كلنا هنا في الميدان.

- لكن توسيع قاعدة العضوية في التنظيم خارج نطاق الظباط اللي عارفينهم وضامنينهم كويس هيكون خطر يا "جمال"!
- صحيح، لكن مفيش اختيار تاني يا "صلاح"! التغيير أصبح حتمي، ومفيش مسارات صحيحة للتغيير غيرنا.

هكذا بدأ "جمال" حديثا طويلا، تناول فيه الأوضاع الداخلية في مصر، وكيف أن النخب الوطنية القليلة لا تنتظم بشكل تنظيمي فعال يجعل لها أثرا إيجابيا في الحياة السياسية! حزب الوفد، وهو حزب الأغلبية الذي أسس شعبيته على ثورة ١٩١٩م، بقيادة الزعيم "سعد زغلول"، تسربت إليه قوى الإقطاع والرأسمالية فقوضت ثوريته من الداخل! والإخوان المسلمون بتركيبتهم المغلقة وأحلامهم السلطوية غير المؤسسة على خطة تهضوية لا يصلحون لتحقيق النهضة التي تحتاجها مصر. وبقية الأحزاب ديكورات سياسية. فمن هو التنظيم الباقي غير الجيش؟ وختم كلامه قائلا:

- الجيش هو قوة الشعب الصلبة، وفي ظروف العالم التالت اللي الاستعمار تعمد إفساد النخبة السياسية فيها، مفيش طريق تاني للتغيير.

طال الحوار وتشعب كثيرا، واستقر الرأي في النهاية على توسيع قاعدة العضوية في تنظيم الضباط الأحرار، بداية من هنا .. من أرض فلسطين التي تجسدت بها محنة العروبة كلها.

وقبل النوم وصلتهم أخبار القوات العراقية التي حاولت كسر حصار القوات المصرية في الفالوجا، ولم تسمح لها القوات الأردنية بقيادة البريطاني "جلوب" بالمرور من مناطقها!! ورفعت بوجهها الحجة التقليدية القاتلة: ماكو أوامر!

(١٥)

نهاية البداية

الزمان: ٢٥ فبراير ١٩٤٩م

المكان: الفالوجا

انتهت المعركة .. ولم تنته الحرب!

فقد فرضت هدنة ثالثة في ٧ يناير ١٩٤٩م، وهذه المرة لم يخرقها اليهود! ثم اجتمعت أطراف الحرب في جزيرة رودس، ووقعت الأطراف اتفاقية هدنة نهائية في ٢٤ فبراير ١٩٤٩م، تنسحب بمقتضاها القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا وعراق المنشية إلى داخل الحدود المصرية، بكامل السلاح والرجال، ووضع قطاع غزة – وحده الشمالي خمسة عشر كيلومترا شمالي غزة – تحت الإدارة المصرية. ووردت الأوامر للقوات المحاصرة بالانسحاب في اليوم التالي نحو غزة. وهكذا كانت القوات تستعد للانسحاب في الخامس والعشرين من فبراير.

كان "زكريا محيي الدين" قد أعد شدته، وجاء من الفالوجا لعراق المنشية ليكون مع "جمال" في رحلة العودة للقاهرة. جلسا معا في فناء المعسكر الإنجليزي المهدم، يحتسيان الشاي في انتظار تحرك السيارات نحو غزة. قال له "زكريا":

- كأنك يا أبو زيد ما غزيت!! أول مرة أحس بعمق المثل ده!
- مش معاك في الموضوع ده يا "زكريا"! صحيح الحرب دي مغيرتش الأوضاع هنا كتير، لكن هتغير كل شيء في القاهرة. والتغيير في القاهرة هو بداية المعركة الحقيقية، بداية تغيير الوطن العربي كله.
- إزاي؟
- أحداث العنف في مصر طول السنة اللي فاتت نتيجة طبيعية لحماقة الدولة اللي سمحت لتنظيم الإخوان بامتلاك السلاح والتدريب عليه. ودلوقت كل الأطياف السياسية اتجرت للشكل ده، بما فيها القصر نفسه! تفتكر ده وضع ممكن يستمر؟

كان "جمال" يرى العديد من التداعيات وهي تتراكم في سماء القاهرة من جراء الحرب. وقد صدقت رؤياه! امتلك الإخوان المسلمون السلاح وتدربوا عليه خلال الحرب، وتلك التنظيمات العقائدية لا تصبر كثيرا عندما تمتلك أسباب القوة، طبق الإخوان أفكار التغيير بالعنف المسلح في الداخل المصري، وسيكون لهذا تداعيات في غاية الخطورة.

في ٢٢ مارس ١٩٤٨م اغتالت خلية إخوانية القاضي بمحكمة استئناف القاهرة "أحمد الخازندار"، لأنه حكم في واحدة من قضاياهم. وفي ٢٥ تعرض منزل "مصطفى النحاس" – زعيم الوفد والخصم السياسي للإخوان – لقنبلة هدمت جزءا منه! وتكررت محاولة اغتياله في نوفمبر من نفس العام بالرصاص! وقتل اللواء "سليم زكي" حكمدار العاصمة بشظية قنبلة في ديسمبر! فاتخذ النقراشي باشا قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين

في الثامن من ديسمبر! ليرد الإخوان باغتياله بعد عشرين يوما! كانت هذه بدايات دوامة العنف السياسي التي قرأ جمال تداعياتها قبل أن تحدث، ولم تلبث التداعيات أن بدأت فور عودتهم للقاهرة!

تحرك "الحرس الحديدي" الموالي للملك "فاروق"، ليرد على اغتيال رئيس الوزراء باغتيال زعيم الإخوان "حسن البنا" في فبراير ١٩٤٩م، وحاول الإخوان إغتيال رئيس الوزراء الجديد "إبراهيم عبد الهادي باشا" ورئيس مجلس النواب "محمد حامد جودة" ونجا الاثنان!

صار جليا للعيان أن مصر دخلت نفقا مظلما ضعفت فيه الدولة عن إقرار الأمن والاستقرار، ففقدت شرعيتها بعيون مواطنيها، وارتكب فيه الإخوان جرائم العنف المسلح، وتورطت كل التيارات السياسية في العنف، فصار للوفد جماعة مسلحة هي القمصان الزرق، وصار لمصر الفتاة قمصانها الخضر بالمقابل، وللقصر حرسه الحديدي، وللإخوان التنظيم الخاص قبلهم جميعا! صار واضحا للعيان أن مصر تحتاج لثورة تقلب الأوضاع، وأن أي من تلك الأطراف التي تكالبت على غنيمتها لن تكون في صدارة تلك الثورة. ووصلت المأساة لذروتها في حريق القاهرة!

لم يستغرق الأمر ثلاث سنوات وبضعة شهور حتى كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م تنطلق في مصر، لتغير وجه مصر والشرق الأوسط بأسره، وتغير موازين القوى في العالم

القديم. فقد كانت كما وصفها الزعيم والقائد: "**لقد كان ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. بداية تاريخ جديد لهذه الأمة الثائرة المناضلة**"

** تمت **